توني موريسون

حائزة جائزة نوبل للآداب

الديار

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

توني موريسون

حائزة جائزة نوبل للآداب

الديـــار

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
publishing@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٦
ISBN: 978-9953-88-943-6

تصميم الغلاف: ريتا كلزي
صورة الغلاف: Shutterstock:/laura.h
الإخراج الفني: بسمة تقي

بيت من هذا؟

ليل من يمنع الضوء هنا؟

من، يا تُرى، مالك هذا المنزل؟

إنه ليس ملكي.

فقد كنت أحلم بآخر، أحلى وأكثر إشراقاً،

يطلُّ على بحيراتٍ تعبرها قوارب ملوّنة،

وعلى حقولٍ واسعةٍ كذراعين مفتوحتين.

غريبٌ هذا المنزل.

ظلالهُ كاذبة.

أخبرني، قل لي لِمَ يتوافق قفله ومفتاحي؟

- ١ -

شمخا كالرجال. رأيناهما. كالرجال انتصبا.

لم يكن مُفترضاً أن نكون على مقربة من ذلك المكان. فقد كان يحتوي، مثل معظم الأراضي الزراعية خارج لوتس، بجورجيا، على كثير من علامات التحذير المخيفة. كانت التحذيرات معلّقة على السياجات الشبكية المثبتة بأوتاد خشبية تفصل بين الوتد والآخر خمسون قدماً أو ما يقاربها. لم نستطع المقاومة بعدما شاهدنا ثغرةً حفرها حيوان ما ـ ربما ذئب بري أو كلب صيد ـ يمكننا الزحف من خلالها. فقد كنّا مجرّد طفلين. كان العشب يبلغ مستوى كتفها وخصري، وزحفنا عبره على بطنينا ونحن نحترس من الأفاعي. كانت المكافأة تستحق ما ألحقته عصارة العشب وسُحُب البعوض من أذى بأعيننا، لأنهما انتصبا أمامنا مباشرةً، على بعد حوالى خمسين ذراعاً، كالرجال. كانت حوافرهما المرفوعة تهشّم وتضرب وعُرْفاهما يندفعان متراجعين عن أعينهما الوحشية البيض. عضّ كلّ منهما الآخر مثل كلب، لكننا حبسنا أنفاسنا دهشةً عندما انتصبا على قوائمهما الخلفية، والقائمتان الأماميتان لكل منهما حول أعلى كاهل الآخر. كان أحدهما بلون الصدأ، والآخر أسود داكناً، وكلاهما يلمع

من العرق. لم يثر صهيلهما خوفنا بقدر ما أثاره الصمت الذي أعقب رفسةً من قائمتي أحدهما الأماميتين على شفتي خصمه المرتفعتين. لم تكترث المُهَر والأفراس في الجوار، وواصلت قضم العشب أو أشاحت بأنظارها بعيداً. ثم توقّف الأمر. خفض الصدئيّ اللون رأسه وراح ينبش الأرض بحافره، فيما وثب الفائز راسماً قوساً وهو يدفع الأفراس أمامه برفق.

تهنا، ونحن نشق طريقنا عائدين عبر العشب، بحثاً عن الثغرة، متحاشين صف الشاحنات المركونة في الخلف. استغرق عثورنا على السياج وقتاً طويلاً للغاية. لم يصب أي منّا بالهلع إلى أن سمعنا أصواتاً حثيثة ولكن خفيضة. أمسكت بذراعها ووضعت إصبعي على شفتي. لم نرفع رأسينا، واكتفينا باختلاس النظر عبر العشب، فرأيناهم يسحبون جثةً من عربة يد ويرمون بها في حفرة جاهزة تنتظرها. علقت إحدى قدمي الجثة فوق الحافة واختلجت كما لو أنها تستطيع الخروج، وأن بإمكانها، بقليل من الجهد، اختراق التربة التي تُهال عليها. لم نتمكّن من رؤية وجوه الرجال الذين يقومون بالدفن، إنما سراويلهم وحسب؛ ثم رأينا طرف رفش يدفع بالقدم المرتجفة إلى الأسفل لتنضم إلى بقية الجثة. شرع جسمها كلّه يرتجف لما رأت القدم السوداء بأخمصها الزهري الملطّخ بالوحل يُدفع بها إلى القبر. طوّقتُ كتفيها بذراعَيّ بقوة وحاولتُ جذب ارتجافها إلى عظامي اعتقاداً مني بقدرتي على معالجة الأمر، كوني شقيقها الذي يكبرها بأربع سنوات. كان الرجال قد رحلوا منذ وقتٍ طويل والقمر قد تلوّن بلون البطيخ الأصفر، حين شعرنا أننا بتنا على قدر من الأمان

نستطيع معه هزّ عشبةٍ واحدة، والزحف بحثاً عن الجزء المحفور أسفل السياج. توقّعنا بوصولنا إلى المنزل أن نتعرّض للجلْد، أو أقلّه للتوبيخ الشديد، على بقائنا في الخارج إلى هذا الوقت المتأخّر، لكن الكبار لم يلحظونا. فقد كان انتباههم مشدوداً إلى أمر مزعج ما.

بما أنك قرّرت إخبار قصتي، فمهما فكّرت ومهما كتبت، اعلم التالي: لقد نسيتُ فعلاً أمر الدفن. ولا أذكر إلا الحصانين. كانا جميلين جداً. ووحشيين جداً. وانتصبا كالرجال.

- ٢ -

التنفّس. كيف يمكن له أن يتنفّس دون أن يعلم أحد أنه مستيقظ. تصنُّعُ شخير عميق ورتيب وإرخاء الشفة السفلى. والأهم من ذلك عدم تحريك الجفون، والمحافظة على الإيقاع المنتظم للقلب وعلى الارتخاء في اليدين. وحين يتحقّقون في الثانية فجراً من حال المريض في الغرفة ١٧ في الطابق الثاني ليحدّدوا حاجته إلى حقنة أخرى لشلّ حركته سيجدونه غارقاً في نوم من المورفين. وربما، إذا اقتنعوا، سيغفلون الحقنة ويرخون قيده فتستمتع يداه ببعض دم. تتمثّل خدعة محاكاة شبه الغيبوبة، على غرار التظاهر بالموت والوجه للأسفل في ساحة المعركة الموحلة، في التركيز على شيء واحد محايد؛ شيء يخنق أي تلميح عشوائي إلى الحياة. قال في سرّه: ثلج، مكعب منه، رقاقة منه، بركة مكسوّة بالجليد، أو منظر طبيعي متجلّد. لا. إذ يرتبط الكثير من الانفعال بالتلال المتجلّدة. النار، إذاً؟ أبداً، فهي نشطة جدّاً. يحتاج إلى أمر لا يحرّك فيه أي مشاعر ولا يحرّض لديه أي ذكريات، طيبة أو مخجلة. لقد أثار مجرّد البحث عن شيء كهذا فيه الاضطراب. فكل شيء يذكّره بأمرٍ مشحونٍ بالألم. شَغَلَ تصوّرُ صفحة بيضاء من الورق ذهنَه بالرسالة التي تلقّاها، تلك التي خنقته: «تعالَ

سريعاً. فهي ستموت إذا تلكّأتَ». استقرّ به الأمر في النهاية على كرسيّ في ركن الغرفة بوصفه غرضه المحايد. خشب. سنديان. مطلي بالورنيش أو مبقّع. كم عدد ألواح الخشب في ظهره؟ هل مقعده مسطّح أم مقعّر؟ هل هو نتاج صناعةٍ يدوية أم أن آلةً صنعته؟ إن كان مشغولاً يدويّاً فمن هو النجار ومن أين جاء بخشبه؟ الأمر ميئوس منه. فالكرسي يثير الأسئلة ولا يوحي باللامبالاة الفارغة. وماذا عن تخيُّل المحيط في يوم غائم، يُنظر إليه من على سطح سفينة جند، حيث لا أفق أو أمل برؤية أحد؟ لا. ليس مناسباً، إذ قد يكون بعض أبناء دياره في القعر، بين الجثث المحفوظة الباردة. عليه أن يركّز على شيء آخر: سماء ليلٍ بلا نجوم، أو أفضل، سكك حديدية. لا مناظر طبيعية، لا قطارات، بل سكك حديد لا نهاية لها؛ لا نهاية فحسب.

أخذوا قميصه وجزمته ذات الرباط، لكن سرواله وسترته العسكرية (ولا يشكّل أيٌّ منهما أداة فاعلة للانتحار) بقيا معلّقين في الخزانة. وليس عليه إلا أن يعبر الرواق إلى باب المخرج الذي لم يعد يُغلق أبداً، منذ شبّ حريق في ذلك الطابق قُتلت فيه ممرضة واثنان من المرضى. تلك هي الرواية التي أخبره بها كراين، الثرثار المرتّب، وهو يمضغ العلكة ويغسل إبطَي المريض. لكنه اعتقد أنها مجرّد رواية لملء استراحة التدخين التي يأخذها الموظفون. تمثّلت خطة فراره الأولى بطرح كراين أرضاً حين يأتي في المرة المقبلة لإزالة فضلاته. لكن الأمر يتطلّب حلّ أغلاله؛ وفي ذلك مجازفة كبيرة، فاختار خطة أخرى.

أمال رأسه بشدّة قبل يومين، وهو مقيّد في المقعد الخلفي لسيارة

الدورية، ليرى أين هو وإلى أين يؤخذ. لم يسبق له قط أن جاء إلى هذا الحي. فمنطقته هي وسط المدينة. لم تبرز أي علامةٍ مميّزة سوى ضوء النيون القوي للافتة أحد المطاعم، وشارة ضخمة في ساحة كنيسةٍ صغيرة: «كنيسة صهيون الأسقفية الميثودية الأفريقية». هذا هو المكان الذي سيقصده مباشرةً إذا نجح في الهروب عبر مخرج الطوارىء: إلى صهيون. بيد أن عليه، قبل الفرار، أن يحصل بشكل ما، بطريقة ما، على حذاء. فالسير إلى أي مكان شتاءً من دون حذاء كفيل بتوقيفه وإعادته مخفوراً إلى المستشفى، إلى أن يُحكَم عليه ربما بتهمة التشرّد. يا له من قانون مثير للاهتمام ذاك الذي يعني فيه التشرّد الوقوف في الخارج أو السير على غير هدى. ومن شأن حمل كتاب ما أن يساعد، لكن كون المرء حافياً يتعارض مع مفهوم «الهدى»، كما أن التسمّر في المكان قد يستجلب الشكوى من «التسكّع». كان يعلم أكثر من معظم الناس أن ليس بالضرورة أن يوجد المرء في الخارج لكي يتعرّض للإزعاج القانوني أو غير القانوني. إذ يمكنه أن يكون في الداخل، مقيماً في منزله لأعوام، لكن ذلك لا يمنع رجالاً بأسلحةٍ وبشاراتٍ أو بغير شارات من أن يجبروه وعائلته وجيرانه على حزم أمتعتهم والرحيل، بأحذية أو من دونها. كان يمتلك منذ اثنين وعشرين عاماً، أي حين كان في الرابعة من العمر، زوجاً من الأحذية، مع أن نعل أحدهما كان يصطفق مع كل خطوة. أُمر سكان خمسة عشر منزلاً بمغادرة حيّهم الصغير عند طرف البلدة. قيل لهم إن لديهم مهلة أربع وعشرين ساعة، وإلّا. «وإلّا» كانت تعني «الموت». جاء التحذير في الصباح الباكر،

لذا فقد انقضى النهار كله في الهرج والغضب والتوضيب. وأخذ معظمهم في الرحيل مع هبوط الليل، بالعربات إن توفّرت، وإلا فسيراً على الأقدام. بيد أن رجلاً طاعناً في السن، يُدعى كراوفورد، جلس على درج مدخل بيته ورفض الإخلاء بالرغم من تهديدات الرجال، المقنّعين منهم وغير المقنّعين، ومن توسّلات جيرانه. انتظر طول الليل وقد أسند مرفقيه إلى ركبتيه وهو يمضغ التبغ. وبُعَيْدَ الفجر تماماً تعرّض للضرب حتى الموت، بالأنابيب وبأعقاب البنادق، ورُبط إلى أقدم شجرة ماغنوليا في المقاطعة، تلك التي نمت في فنائه الخاص. ربما كان حبّه لتلك الشجرة، التي تعوّد أن يفاخر بأن جدة جدّه قد زرعتها، هو ما جعله على هذا القدر من العناد. تسلّل بعض الجيران الهاربين، عائدين تحت جنح الليل، لحلّ وثاقه ودفنه تحت ماغنوليته الحبيبة. وأخبر أحد حفّاري القبر كلّ من قبل الاستماع إليه أنّ عيني السيد كراوفورد فُقئتا.

لم يكن المريض يمتلك حذاءً بالرغم من أنه ضروري لهربه. تمكّن في الساعة الرابعة فجراً، قبل شروق الشمس، من حلّ وثاقه المصنوع من القنّب محرراً نفسه، ونزع رداء المستشفى. ارتدى سرواله العسكري وسترته ونزل على رؤوس أصابعه الحافية إلى الردهة. باستثناء العويل الصادر من الغرفة المجاورة لمخرج الطوارىء، كان الهدوء مخيّماً: لم يكن يُسمَع لا صرير أخفاف الممرّضين ولا ضحكات مكتومة ولم تكن تُشمّ رائحة دخان سجائر. أنّت المفاصل عندما فتح الباب وضربه الصقيع كمطرقة.

آلمه كثيراً حديد سلّم النجاة المتجلّد، إلى درجة أنه قفز من فوق

السياج لإغراق قدميه في الثلج الأدفأ على الأرض. كان ضوء القمر المسعور، القائم بعمل النجوم الغائبة، يضاهي جنونه اليائس، مضيئاً كتفيه المحنيّتين وآثار أقدامه التي خلّفها في الثلج. كان يحتفظ بميدالية الخدمة في جيبه لكنه لم يكن يمتلك «فكّة» ولم يخطر له بالتالي أن يبحث عن كشك هاتف للاتصال بليلي. وهو لن يفعل ذلك على أي حال، ليس بسبب فراقهما البارد وحسب، بل لأن من المخزي أن يطلب مساعدتها الآن، وهو هارب حافي القدمين من مستشفى المجانين. أمسك بياقته وشدّها بقوة إلى عنقه وراح يركض، متفادياً الأرصفة المجروفة إلى حافة الطريق التي كوُّم عليها الثلج، عبر الأبنية الست بأسرع مما تسمح له رواسب المخدّر الذي حُقن به في المستشفى. بلغ بيت كاهن كنيسة صهيون الأسقفية الميثودية الأفريقية، وهو عبارة عن بيت خشبي صغير مؤلف من طبقتين. كان درج المدخل منظفاً بعناية من الثلج، لكن الظلام كان مخيّماً في المنزل. قرع بقوة، حسبما اعتقد، نظراً إلى مدى تيبّس يديه، ولكن ليس بطريقة متوعّدة شبيهة بطرقات مجموعة من المواطنين أو أفراد العصابات أو عناصر الشرطة. أثمر إصراره، فقد أُشعل ضوء وشُقّ الباب ثم فُتح بشكل أوسع وظهر رجل شائب يرتدي رداءً من الصوف وهو يمسك بنظارته، مقطّباً حاجبيه من وقاحة زائر ما قبل الفجر.

أراد أن يقول «صباح الخير» أو «أستميحك عذراً»، لكن جسمه راح يرتجف بعنف وكأنه مصاب برقّاص سيدنهام[1]، وشرعت أسنانه تصطك بطريقة يتعذّر السيطرة عليها، ما أفقده القدرة على إحداث

---

(١) مرض فقدان السيطرة على الحركة الناتج عن الحمّى الرئوية.

أي صوت. أدرك الرجل الواقف عند الباب تماماً ما بدا عليه ضيفه المرتجف ثم تراجع ليفسح له في المجال للدخول.

«جين! جين!» واستدار ليوجّه صوته صوب أعلى الدرج قبل أن يشير إلى الزائر بالدخول. «يا إلهي»، تمتم وهو يدفع الباب لإغلاقه. «إنك في حال يُرثى لها».

حاول الابتسام لكنه فشل.

«اسمي لوك، القسيس جون لوك، وأنت؟».

«فرانك، يا سيدي. فرانك ماني».

«هل أنت من أسفل الشارع؟ من ذاك المستشفى؟».

هزّ فرانك برأسه إيجاباً وهو يضرب الأرض برجليه ويفرك أصابعه في محاولة لإعادة الحياة إليها.

غمغم القسيس لوك قائلاً: «تفضّل بالجلوس». ثم هزّ رأسه مضيفاً: «أنت محظوظ يا سيّد ماني. فهم يبيعون كثيراً من الجثث هناك».

«جثث؟» وارتمى فرانك على الأريكة وهو بالكاد يبالي أو يهتم بما يتحدث الرجل عنه.

«آه، أجل. لكلّية الطب».

«يبيعون الجثث؟ لماذا؟»

«آه، يحتاج الأطباء، كما تعلم، إلى العمل على الموتى الفقراء ليساعدوا الأحياء الأغنياء».

«توقّف يا جون». نزلت جين لوك الدرج وهي تشدّ حزام ردائها. «ذلك هراء فحسب».

«هذه زوجتي»، قال لوك. «وهي غالباً ما تكون على خطأ بالرغم من أنها حلوة كالعسل».

«مرحباً، سيدتي. أنا آسف لأنني...»، ووقف فرانك وهو لا يزال يرتجف.

قاطعته. «لا لزوم لذلك. الزم مقعدك»، قالت واختفت في المطبخ.

نفّذ فرانك ما طُلب منه. فالمنزل، باستثناء غياب الريح، يكاد لا يقل برودةً عن الخارج، ولم تكن الأغطية البلاستيكية المشدودة بقوة على الأريكة عاملاً مساعداً.

لاحظ لوك شفتي فرانك المرتجفتين. «آسف إذا كان المنزل بارداً جداً. لقد تعوّدنا المطر في هذه المنطقة لكننا لم نتعوّد الثلج. من أين أنت، على أي حال؟»

«من وسط المدينة».

تأوّه لوك كما لو أن ذلك يشرح كل شيء. «أتفكّر في العودة إلى هناك؟»

«كلا يا سيدي، فأنا في طريقي إلى الجنوب».

«كيف، يا ترى، انتهى بك الأمر في المستشفى بدلاً من السجن؟ فإلى هناك يذهب معظم الحفاة ومرتدي الأسمال».

«الدم، على ما أظن. الدم الكثير الذي كان يسيل على وجهي».

«وما الذي تسبّب بذلك؟»

«لا أدري».

«ألا تتذكّر؟»

«كلا. أذكر الضجيج وحسب. كان صاخباً.. صاخباً فعلاً». وفرك فرانك جبهته. «ربما خضتُ عراكاً؟» طرح سؤاله كما لو أن القسيس قد يعلم سبب تكبيله وحقنه على مدى يومين بالمنوّم.

رمقه القسيس لوك بنظرة قلقة. لم تكن عصبية بل قلقة وحسب. «لا بد أنهم اعتقدوا أنك خطير. لو كنت مريضاً فقط لما أدخلوك المستشفى. إلى أين أنت متوجّه بالضبط، يا أخي؟» كان لا يزال واقفاً ويداه خلف ظهره.

«إلى جورجيا، يا سيدي. إن استطعت إليها سبيلاً».

«حقّاً؟ إنها لمسافة بعيدة. هل لدى الأخ ماني[1] أي مال؟» وابتسم لوك لفكاهته الخاصة.

«كان لديّ بعض المال عندما أوقفوني»، أجاب فرانك. لم يعد في جيب سرواله الآن سوى ميداليته العسكرية. لم يستطع تذكّر المبلغ الذي ناولته إياه ليلي، بل تذكّر فقط شفتيها المقلوبتين وعينيها اللتين لا ترحمان.

---

(١) هنا تلاعب على اللفظ إذ إن ماني بالإنكليزية تعني المال.

«لكنه اختفى الآن، أليس كذلك؟» ونظر إليه بعينين نصف مغمضتين. «هل تبحث الشرطة عنك؟»

«كلا»، قال فرانك. «كلا، يا سيدي. دفعوني بقوة ووضعوني في جناح المجانين». وجمع يديه على شكل كأس ونفخ فيهما. «لا أعتقد أنهم وجّهوا إليّ أي تهمة».

«لن تعلم إن فعلوا».

عادت جين ومعها حوض من الماء البارد. «ضع قدميك فيه، يا بُني. إنه بارد لكنك لا تريد لهما أن تسخنا بسرعة كبيرة».

غطّس فرانك رجليه في الماء وهو يتنهد. «شكراً».

«ما السبب الذي دفعهم إلى اعتقاله؟ أقصد الشرطة». سألت جين زوجها الذي هزّ كتفيه.

ما السبب حقّاً. فباستثناء هدير [الطائرة القاذفة] «بي-٢٩»، مضى وقت طويل على قيامه بما يجتذب إليه انتباه الشرطة. إنه عاجز عن شرح الأمر لنفسه فكم بالحري لزوجين لطيفين يعرضان المساعدة. إن لم يتعارك مع أحدهم، فهل تبوّل على قارعة الطريق؟ أم كال الشتائم لبعض المارة، لبعض التلامذة ربما؟ هل كان يضرب رأسه بجدار أم أنه اختبأ وراء شُجَيْرات فناء بيت أحدهم الخلفي؟

«لا بدّ أنني قمت بتصرّف ما»، قال. «أمر من ذلك النوع». إنه لا يستطيع التذكّر حقّاً. هل رمى بنفسه أرضاً لدى سماعه الصوت الفجائي لفرقعةٍ ما؟ ربما شرع في شجار مع غريب أو أخذ ينتحب أمام الأشجار: يعتذر منها على أفعال لم يرتكبها قط. ما يتذكّره هو:

ما إن أقفلت ليلي الباب وراءه حتى تملّكه هلعٌ شديد بالرغم من جدّية مهمته. فمضى إلى الحانة وتجرّع بضعة أقداح كي يتمالك نفسه لأجل الرحلة الطويلة. وغادر الحانة وقد فارقه الجزع وكذلك سلامة العقل. وعاد إليه الغضب المتفلّت، وكره الذات المتنكّر في لبس أخطاء الآخرين. والذكريات التي اختمرت في معسكر «فورت لاوتن» الذي هام منه على وجهه ما إن تم تسريحه. فكّر عندما نزل من السفينة أن يبرق إلى الديار لأن ما من أحد في لوتس يمتلك خط هاتف. لكن عمال التلغراف شرعوا هم أيضاً في الإضراب إلى جانب إضراب عاملي الهاتف. كتب على بطاقة بريدية ثمنها سَنْتان: «عدتُ سالماً، أراكم جميعاً في وقت قريب». ولم يأتِ «الوقت القريب» لأنه لم يرد الذهاب إلى الديار من دون «ابنَيْ بلده». كيف يمكنه أن يقف في مواجهة أهل مايك أو ستاف وهو الباقي على قيد الحياة. فتنفسه السليم وذاته السليمة هما بمثابة إهانة لهم. ولن يتمكّن من لومهم على استيائهم مهما اخترع من أكاذيب عن مدى شجاعة ميتتهما. ثم إنه يكره لوتس، إذ لا يمكنه احتمال سكانها العديمي الرحمة، وعزلتها، ولاسيما لامبالاتها بالمستقبل إلا بوجود رفيقيه معه.

«كم مضى على عودتك؟» سأله القسيس لوك وهو لا يزال واقفاً، وقد رقّت ملامحه.

رفع فرانك رأسه. «حوالى السنة».

حكّ لوك ذقنه وأوشك على الكلام عندما عادت جين ومعها كوب وطبق من كعك الصودا. قالت: «هذا مجرّد ماء مع كثير من الملح. اشربه لكن بتمهّل. سآتيك بدثار».

ارتشف فرانك من الكوب مرتين ثم جرع ما تبقى دفعةً واحدة. وقالت جين لما جاءته بالمزيد: «بنيّ، غطّس الكعك في السائل فتتمكن من ابتلاعه بشكل أفضل».

«جين»، قال لوك، «انظري ماذا يوجد في صندوق التبرّعات».

«يحتاج أيضاً إلى حذاء يا جون».

لم يكن هناك أي حذاء، فوضعا أربعة أزواج من الجوارب وجزمة مطاطية بالية بعض الشيء بالقرب من الأريكة.

«خذ قسطاً من النوم يا أخي، فأمامك رحلة شاقة ولا أعني فقط جورجيا».

غفا فرانك بين دثار الصوف وغطاء الأريكة البلاستيكي وحلم حلماً تخلّلته أشلاء الجثث. استيقظ على نور الشمس العدائية وعلى رائحة الخبز المحمّص. استغرق من الوقت أكثر مما يجب ليستوعب أين هو. أخذت آثار يومين من التخدير في المستشفى تفارقه، ولكن ببطء. وهو، أينما كان، شاكرٌ لأن أشعة الشمس لم تؤذِ رأسه. جلس وبدت له الجوارب المطوية بعناية على البساط أشبه بأرجل مكسورة. ثم تناهت إليه غمغمة من غرفة أخرى. تجلّى له ماضيه القريب من جديد وهو يحدّق إلى الجوارب: الهروب من المستشفى، الركض على الجليد، وأخيراً القسيس لوك وزوجته. وهكذا عاد إلى العالم الحقيقي مع دخول لوك وسؤاله إياه عن شعوره بعد ثلاث ساعات من النوم.

«جيّد. أشعر أنني بخير»، قال فرانك.

رافقه لوك إلى الحمّام ووضع عدّة حلاقة وفرشاة للشعر على رفّ المغسلة. انتعل الحذاء وأصلح هيئته، ثم فتش في جيوب سرواله ليرى إنْ كان الممرضون العسكريون قد فوّتوا شيئاً، ربع دولار أو عشرة سنتات، لكن ميداليته العسكرية هي الشيء الوحيد الذي تركوه له. اختفى المال الذي أعطته إياه ليلي. جلس فرانك إلى طاولة طُلي سطحها بالمينا وتناول فطوراً مؤلفاً من دقيق الشوفان والخبز المحمّص الذي أُفرط في دهنه بالزبدة. ووُضعت على الطاولة ثماني أوراق من فئة الدولار وكومة من النقود المعدنية. الأمر أشبه بمبلغ كُسب في لعبة بوكر لولا أنه بالتأكيد كُسِب بطريقة أكثر صعوبة: قطع العشرة سنتات التي انزلقت من محفظات القطع النقدية الصغيرة؛ أو قطع الخمسة سنتات التي تخلّى عنها أولاد على مضض لأنهم وضعوا لإنفاقها خططاً أحلى؛ فيما مثّلت أوراق الدولار سخاء عائلة بأكملها.

«سبعة عشر دولاراً»، قال لوك. «هي أكثر من كافية لشراء تذكرة حافلة إلى بورتلاند، ومن هناك إلى مكان ما على مقربة من شيكاغو. لكن من المؤكد أنها لن توصلك إلى جورجيا، ولكن عندما تبلغ بورتلاند، إليك ما ستفعله».

أعطى تعليماته لفرانك بلقاء القسيس جيسي ماينارد، راعي الكنيسة المعمدانية، وأنه سيتصل مسبقاً ويطلب إليه رعايته هو أيضاً.

«أنا أيضاً؟»

«الحقيقة أنك لست الأول في هذه الطريق الطويلة. فالجيش المنظم هو بؤس منظم. تذهبون جميعكم للقتال، وعند عودتكم

يعاملونكم كالكلاب. دعك من ذلك، فهم يعاملون الكلاب بطريقة أفضل».

حدّق فرانك إليه، لكنه لم يقل شيئاً. فالجيش لم يعامله بهذا القدر من السوء. وليس خطأهم أنه يُجنّ بين وقت وآخر. الحقيقة أن أطباء التسريح تميّزوا بالمراعاة واللطف وأبلغوه أن الجنون سيرحل مع الوقت. فقد كانوا يعرفون كل شيء عن الجنون وأكّدوا له أنه سيمر، وأبلغوه أن عليه أن ينأى بنفسه عن الكحول وحسب، وهو ما لم يفعله. لم يستطع إلى أن التقى ليلي.

ناول لوك فرانك قصاصة انتُزعت من ظرف عليها عنوان ماينارد، وأبلغه أن لماينارد رعية كبيرة يمكنها أن تقدّم مساعدة أكبر من تلك التي يمكن أن تقدّمها رعيته الصغيرة.

وضّبت جين ست شطائر وبعض الجبن والسجق الإيطالي وثلاث برتقالات في كيس للبقالة، وناولته إياه مع قبعة صوفية. اعتمر فرانك القبعة وشكرها ثم سأل وهو ينعم النظر في داخل الكيس: «كم ستستغرق الرحلة؟»

«لا يهم»، قال لوك. «ستكون شاكراً لكل قضمة لأنك لن تتمكن من الاستراحة في أيّ من محطات الحافلة. استمع إليّ، أنت من جورجيا وخدمت في جيش مندمج عرقيّاً، وربما اعتقدت أن الأمور في الشمال تختلف عمّا هي في الجنوب. لا تصدّق ذلك ولا تعتمد عليه. فالعرف أشبه بقانون، ويمكنه أن يحمل القدر نفسه من الخطر. هيا بنا الآن، سأقلّك بالسيارة».

وقف فرانك عند الباب فيما القسيس يجلب معطفه ومفاتيح السيارة.

«وداعاً يا سيّدة لوك. وأنا أشكرك».

«حافظ على سلامتك، يا بني»، أجابت وهي تربّت على كتفه.

حوّل لوك، عند شباك التذاكر، النقود المعدنية إلى أوراق مالية واشترى تذكرة لفرانك الذي لاحظ، قبل انضمامه إلى الطابور عند باب شركة الحافلات «غرايهاوند»، سيارة شرطة تجوب المكان، فركع كما لو أنه يبكّل جزمته. وقف بعد زوال الخطر ثم استدار صوب القسيس ومدّ يده. نظر الرجلان، وهما يتصافحان، كلّ في عيني الآخر، ولم يقولا شيئاً لكنهما قالا كل شيء، كما لو أن كلمة «الوداع» تعني ما عنته في السابق: كان اللّه معك.

كان عدد الركاب قليلاً، ومع ذلك جلس فرانك كما يتوجّب في المقعد الأخير محاولاً تقليص طول جسمه البالغ ست أقدام وثلاثة إنشات، وممسكاً بإحكام بكيس الشطائر. أصبح المنظر من النافذة، عبر كساء الثلج، أشد كآبةً بعدما ألقت الشمس بنورها على الأشجار الهادئة والعاجزة عن الكلام في غياب أوراقها. كانت المنازل التي بدت منعزلة تعيد تشكيل الثلج، فيما كانت عربات الأطفال هنا وهناك تحمل أكواماً منه. وحدها الشاحنات العالقة في الممرات الخاصة بدت حيّة. ولم يستطع، وهو يفكّر في أشكال هذه المنازل من الداخل، أن يتخيّل أي شيء على الإطلاق. لذا، كما هي حاله في الغالب عندما يكون وحيداً وصاحياً، وبغض النظر عن الظروف

المحيطة، كان يرى صبياً يعيد الدفع بأمعائه إلى الداخل وقد أمسك بها براحتي يديه مثل كرة تنجيم تنبىء بالأخبار السيئة؛ أو يسمع صوت فتى لم يتبقّ إلا أسفل وجهه سليماً وشفتاه تناديان أمه؛ وهو يطأ الصبي والفتى ومن حولهما ليبقى حيّاً، لمنع وجهه هو من الانحلال، وللحفاظ على أمعائه النابضة بالحياة تحت ذلك الغطاء الرقيق للغاية من البشرة الجلدية. على النقيض من المشهد الشتائي الذي يلوح باللونين الأسود والأبيض، احتل الدم قلب المسرح. وهذه الصور لم تُمحَ قط إلا مع ليلي. وحاول ألا يفكّر بهذه الرحلة على أنها بمثابة انفصال، بل أملَ أن تشكّل وقفة مؤقّتة. ومع ذلك صَعُبَ عليه تجاهل ما آلت إليه الإقامة معها: لفّت صوتها قسوةٌ متعَبة وشاب الصمتَ طنينُ خيبة أملها. وبدا أن وجه ليلي يتحوّل أحياناً إلى مقدمة سيارة جيب: عيناها كمصباحين أماميين عديمي الشفقة، لمعان ساطع يعلو ابتسامة شبيهة بواجهة سيارة. غريب كم تغيّرت. بدا، وهو يتذكّر ما أحبّه فيها: التكوّر الخفيف في بطنها، خلفية ركبتيها، ووجهها الجميل المذهل، كما لو أن أحدهم أعاد رسمها بصورة كاريكاتورية. ولا يمكن أن تقع المسؤولية كلّها عليه، أليس كذلك؟ ألم يدخّن خارج المبنى الذي تقع فيه الشقة؟ ألم يضع أكثر من نصف معاشه على خزانة المطبخ لتنفقه كيفما ارتأت؟ وجاملها برفعه غطاء المرحاض، وقد أخذت ذلك على محمل الإهانة. وبالرغم من أنه ذُهل للأدوات النسائية المعلّقة على باب الحمام أو على الخزائن الفوضوية وحواف المغسلة وفي كل الأماكن المتوفرة ـ الحقن المهبلية،

مرفقات الحقن الشرجية، زجاجات الـ «ماسينجيل»[١]، و «ليديا بينكهام»[٢]، الفوط الصحية، مزيل الشعر «نيت»، كريمات الوجه، أقنعة الطين، بكرات لف الشعر، المستحضرات، مزيلات الروائح ـ إلا أنه لم يلمسها قط أو ينازع في شأنها. صحيح أنه كان يجلس أحياناً ساعات في هدوء، خدراً وغير راغب في الكلام، وصحيح أنه فقد بانتظام الوظائف العَرَضية القليلة التي أمكنه تدبيرها، وأن وجوده قربها كان يخنقه أحياناً، إلا أنه لم يكن واثقاً تماماً بأن في وسعه الحياة من دونها. ولا يتعلّق الأمر بالجماع وحسب، بدخول ما يسميه المملكة التي بين فخذيها. فعندما ينام وذراعها الأنثوية الخفيفة على صدره تنحبس كوابيسه بعيداً ويتمكّن من النوم. عندما يفيق من النوم معها لا يكون أول ما يخطر له مذاق الويسكي اللاذع المرحّب به. والأهم من ذلك كله هو أنه لم يعد ينجذب إلى النساء الأخريات، سواء قمن بالمغازلة الصريحة أم عرضن أنفسهن بحثاً عن لذتهن الخاصة. لم يكن يرفعهنّ إلى منزلة ليلي، بل كان ينظر إليهن وحسب بوصفهن أشخاصاً. والصور لم تبهت ولم تنتقل إلى ما وراء ستارة في دماغه إلا مع ليلي، شاحبة ولكنها تنتظر، تنتظر وتتّهم. لِمَ لم تسرع؟ لو أنك وصلت إلى هناك بشكل أسرع لأمكنك مساعدته، لأمكنك سحبه إلى ما وراء التلة كما فعلت مع مايك. وماذا بالنسبة إلى كل عمليات القتل التي ارتكبتها فيما بعد؟ النساء الهاربات وهن يجررن أولادهن. وذلك الرجل ذو الساق الواحدة الذي كان

---

(١) محلول لغسيل المهبل.

(٢) دواء من الأعشاب والكحول للتخفيف من آلام الحيض وسن اليأس.

يعرج على العكاز على طرف الطريق كي لا يعيق الآخرين الأسرع منه؟ لقد حفرتَ فجوةً في رأسه اعتقاداً منك أن ذلك سيعوّض البول المتجمّد على سروال مايك وينتقم للشفتين اللتين تناديان الماما. هل نجح ذلك؟ هل فعل؟ وماذا عن الفتاة؟ ما الذي فعلته لتستحق ما حلّ بها؟ وتضاعفت الأسئلة غير المطروحة كلها كالعفن في ظل الصور التي شاهدها؛ قبل ليلي؛ قبل أن يراها تقف على كرسي وتمطّ قامتها لتبلغ رفّاً علويّاً في خزانة مطبخها وتتناول علبة البيكينغ باودر التي تحتاجها للوجبة التي تقوم بتحضيرها له. وجبتهما الأولى. كان عليه أن يقفز ويسحب العلبة عن الرفّ، لكنه لم يفعل. لم يستطع رفع عينيه عن خلفية ركبتيها. وفيما هي تمطّ قامتها ارتفع فستانها القطني الناعم والمزيّن برسوم الأزهار، كاشفاً عن ذلك البدن الذي نادراً ما يُلحظ، وكان ـ آه ـ طريّاً للغاية. وشرع في البكاء لسببٍ ما زال غير مفهوم بالنسبة إليه. إنه الحب الخالص والبسيط والسريع جدّاً لدرجة أنه حطّمه.

لم يتلقَّ أي حبّ من قِبَل جيسي ماينارد في بورتلاند. المساعدة، بلى. لكنه ازدراه بشدّة. تكرّس القسيس، فيما يبدو، للمحتاجين شرط أن يكونوا مرتدين ثياباً لائقة، وليس لجندي سابق، شاب ومعافى. فقد استبقى فرانك عند البوابة الخلفية على مقربة من الممر الذي يركن فيه سيارته الـ «أولدزموبيل روكيت ٩٨»، وابتسم ابتسامة العارف وقال بمثابة الاعتذار «بناتي في المنزل». كانت هذه الإهانة ضريبة تُفرض على من يتوسّل معطفاً وكنزة وورقتين من فئة العشرة دولارات. ما يكفي لبلوغ شيكاغو وربما منتصف الطريق

إلى جورجيا. ومع ذلك زوّده القسيسماينارد، بالرغم من عدائيته، بالمعلومات المفيدة لرحلته، ونسخ من دليل «غرين» للمسافرين بعض العناوين وأسماء المنازل التي توفّر المأوى؛ وفنادق لن يُردّ فيها على أعقابه.

دسّ فرانك اللائحة في جيب المعطف الذي أعطاه إياه القسيس، ودسّ، بعيداً عن ناظري ماينارد، الورقتين الماليتين في داخل جوربيه. ما إن أخذ يسير نحو محطة القطار حتى خفّ هلعه من احتمال أن تحدث له حادثة أخرى خارجة عن السيطرة، مريبة، هدّامة، وغير قانونية. ثم إنه كان يستطيع التكهّن أحياناً بالكارثة الوشيكة. لقد حدث ذلك للمرة الأولى لدى ركوبه الحافلة على مقربة من فورت لاوتن، وكانت أوراق تسريحه سليمة. كان جالساً بهدوء بجوار امرأة ترتدي ثياباً زاهية، فتنورتها ذات الأزهار كانت تحتوي على كل ألوان الأرض وتميّزت بلوزتها باللون الأحمر الصارخ. رأى فرانك الأزهار عند حاشية تنورتها وهي تسودّ واللون يتلاشى عن بلوزتها الحمراء إلى أن أصبح أبيض كالحليب ثم كل الناس، كل شيء. وخارج النافذة: الأشجار، السماء، صبي على دراجة صغيرة، العشب، السياجات؛ اختفت الألوان كلها وتحوّل العالم إلى شاشة سينما باللونين الأسود والأبيض. لم يصرخ حينها لأنه اعتقد أن خطباً ما يحصل لعينيه. أمر سيئ ولكنه قابل للإصلاح. وتساءل هل هكذا ترى الكلاب أو القطط أو الذئاب العالم، أم أنه أخذ يُصاب بعمى الألوان؟ نزل في المحطة التالية وسار باتجاه محطة «شيفرون» التي كانت ألسنة لهبها السود تندفع من الصمام. أراد دخول المرحاض

والتبوّل والنظر في المرآة ليرى إن كان مصاباً بالتهاب في العين، لكن اللافتة على الباب أوقفته. قضى حاجته بين الشجيرات وراء المحطة وقد أزعجه المشهد الطبيعي الخالي من الألوان وأخافه بعض الشيء. همّت الحافلة بالانطلاق، لكنها توقفت لكي يركب ثانيةً. نزل في المحطة الأخيرة، في المدينة نفسها التي نزل فيها إلى البر على مشهد غناء فتيات المدارس الثانوية ترحيباً بعودة المحاربين القدامى الذين أنهكتهم الحرب. آذته الشمس في الشارع قبالة محطة الباص، ودفعته أشعتها اللئيمة إلى البحث عن ظل. وهناك، تحت سنديانة شمالية، عاد العشب أخضر. شعر بالارتياح، وقد عرف أنه لن يصيح أو يحطّم شيئاً، أو يبدأ بمحادثة الغرباء. لقد حدث ذلك لاحقاً عندما انفجر عاره وثارت ثائرته ولم تعد تعنيه لوحة ألوان العالم. بات لديه الآن متسع من الوقت للإسراع في الاختباء كلما لاحت بوادر تلاشي الألوان. وهكذا كلّما عاوده لغو الألوان يُسرّ لمعرفة أنه لن يصاب بعمى الألوان وأن الصورة الرهيبة ستتلاشى. بات بإمكانه، وقد استعاد ثقته بنفسه، أن يحتمل يوماً ونصف اليوم على متن القطار إلى شيكاغو من دون إشكال.

صعد، تميّزه قبعته الحمراء، إحدى عربات الركاب، وشقّ طريقه عبر ستارة الفصل الخضراء وعثر على مقعد بجانب النافذة. هدّأه اهتزاز القطار وغناء السكّة ودفعاه إلى غفوة نادرة بلغت درجة من العمق فوّت معها بداية أعمال الشغب ولكن ليس نهايتها. أفاق على انتحاب امرأة شابة يواسيها نادلان يرتديان سترتين بيضاوين. وضع أحدهما وسادة خلف رأسها فيما أعطاها الآخر كومة من المناديل

الورقية لتمسح دموعها والدم المنساب من أنفها. كان زوجها الصامت والمستشيط غضباً، الجالس بجوارها، ينظر بعيداً مشيحاً بنظره، وكان وجهه جمجمة من الخزي، ووجه شريكته جمجمة من الغضب الجامد.

لمس مايك ذراع أحد النادلين عندما مرّ به سائلاً وهو يشير إلى الزوجين: «ما الذي حدث؟».

«ألم تشهد ذلك؟»

«لا. ما الأمر؟»

«ذاك هو الزوج، وقد نزل في «إلكو» لشراء القهوة أو ما شابه»، وهزّ إبهامه من فوق كتفه، «فطرده المالك أو الزبائن أو كلاهما، بل في الواقع ركلوه على قفاه وأسقطوه أرضاً، وتابعوا ركله، ولما جاءت امرأته لمساعدته أصيبت بحجر رُميت به في وجهها. عدنا بهما إلى العربة، لكن الحشد ظلّ يصيح إلى أن ابتعدنا». ثم قال: «انظر. أترى ذلك؟» وأشار إلى صفار البيض الملتصق بالنافذة كالبلغم.

سأله فرانك: «هل أبلغ أحد المرافق؟»

«أمجنون أنت؟»

«ربما. قل لي، أتعرف مكاناً جيّداً في شيكاغو لتناول الطعام والحصول على قسطٍ من النوم؟ معي لائحة هنا. أتعرف شيئاً عن هذه الأمكنة؟»

نزع النادل نظارته ووضع أخرى مكانها وأخذ يتفحّص لائحة القسيس ماينارد.

زمّ النادل شفتيه. ثم قال: «لتناول الطعام اذهب إلى مطعم «بوكرز»، فهو قريب من المحطة. أما بالنسبة إلى النوم فجمعية الشبان المسيحية هي دوماً فكرة جيدة. إنها في «واباش». يمكن لهذه الفنادق وما يسمونها مساكن السياح أن تكلّفك كثيراً من المال وقد لا يُسمح لك بالدخول وأنت تنتعل هذه الجزمة المطاطية البالية».

«شكراً»، قال فرانك. «أنا مسرور لسماعي أن معاييرهم عالية».

ضحك النادل ضحكةً مكتومة. «أتريد جرعة؟ لديّ القليل من ويسكي «جوني الأحمر» في خزانتي». كان مطبوعاً على بطاقة الاسم: «س. تايلور».

«آه، آجل بالطبع».

لدى ذكر الويسكي دبّت الحياة في حاسة ذوق فرانك التي لا تعنيها شطائر الجبن أو البرتقال. جرعة واحدة فقط. ما يكفي ليستقر العالم ويحلو. ليس أكثر.

بدا الانتظار طويلاً، ولمّا أيقن فرانك أن الرجل قد نسي عاد تايلور حاملاً فنجان قهوة وصحناً ومنديلاً ورقياً. كان مقدار ٥٠ غراماً من الويسكي يرتجف بشكل جذّاب في الفنجان السميك الأبيض.

«هاك»، قال تايلور، وغادر وهو يهتز على امتداد الممر على وقع ترجّح القطار.

كان الزوجان اللذان أسيئت معاملتهما يتهامسان، هي بصوت خفيض ومستعطف، وهو بإلحاح. قال فرانك في سرّه: «سيضربها ما إن يبلغا المنزل». ومَنْ لن يفعل؟ فأن يتعرّض المرء للإهانة جهاراً شيء. ويمكن للرجل أن يتجاوز ذلك. إلا أن ما لا يُحتمل هو أن تشهد امرأة، زوجة، ذلك، ولم تكتفِ بالرؤية بل تجرأت على محاولة إنقاذه. إنقاذ! إنه لم يستطع الدفاع عن نفسه ولم يستطع الدفاع عنها هي الأخرى كما يثبت ذلك الحجر الذي أصاب وجهها. وسيتوجّب عليها أن تدفع، المرّة تلو المرّة، ثمن ذلك الأنف المكسور.

غفا قليلاً وقد أعاد إسناد رأسه إلى إطار النافذة في أعقاب قدح الويسكي، وأفاق عند سماعه شخصاً يجلس بجواره. عجباً! إذ ثمة مقاعد عدة فارغة في أنحاء العربة. استدار، وهو مستغرب أكثر مما هو مندهش، وتفحّص رفيقه في المقعد: إنه رجل قصير القامة يعتمر قبعة واسعة الحواف. بذلته الزرقاء الباهتة مؤلفة من سترة طويلة وسروال فضفاض. حذاؤه أبيض ذو طرف مستدقّ بشكل غير طبيعي. كان الرجل يحدّق أمامه. عاود فرانك، وقد تم تجاهله، إسناد رأسه إلى النافذة لاستئناف غفوته. وما إن فعل ذلك حتى نهض الرجل ذو البذلة الفاخرة واختفى عبر الممر، دون أن يخلّف أي تموّجات على المقعد الجلدي.

مرّ فرانك بناظريه بالمنظر الجليدي وشبه المغسول محاولاً إعادة تصميم ديكوره، فرسم في ذهنه أهواراً أرجوانية عملاقة وحروف x ذهبية على الروابي، منقّطاً حقول القمح المجدبة بقطرات صفراء وخضراء. أزعجته ساعات من المحاولة والفشل في إعادة تلوين

المشهد الطبيعي الغربي، لكنه كان على قدرٍ كافٍ من الهدوء عندما نزل من القطار. بلغ ضجيج المحطة حدّاً من الإزعاج دفعه إلى مدّ يده إلى سلاحه. لكنه بالطبع لم يكن يمتلك واحداً، فاستند إلى دعامة فولاذية إلى أن تلاشى ذعره.

بعد ساعة من ذلك أخذ يغرف الفاصولياء العريضة البيضاء، ويدهن خبز الذرة بالزبدة. كان النادل تايلور محقّاً، فبوكرز لم يكن مكاناً جيداً ورخيصاً وحسب، بل وجماعته ـ زبائنه وعاملة «الكونتوار»، والنادلات، والطباخ الصاخب والمجادل ـ ودودة أيضاً ومرحة. فالعمّال والعاطلون عن العمل، والأمهات ونساء الشارع، كانوا جميعاً يأكلون ويشربون بسهولة أكلِ العائلات وشربِها في مطابخها الخاصة. هذا الود السريع الأشبه بالديار هو ما دفع فرانك إلى التحدّث بحرّية إلى الرجل الجالس على المقعد المرتفع المجاور لمقعده والذي بادر إلى التعريف باسمه.

«واتسون. بيلي واتسون»، ومدّ يده.

«فرانك ماني».

«من أين أنت، يا فرانك؟»

«آه، يا رجل. من كوريا وكنتاكي وسان دييغو وسياتل وجورجيا. سمّها وأنا منها».

«هل تتطلّع إلى أن تصبح من هنا أيضاً؟»

«لا، فأنا عائد إلى جورجيا».

«جورجيا؟» صاحت النادلة. «لديّ أقارب في ماكون. لا أمتلك ذكريات طيبة عن المكان. اختبأنا نصف سنة في منزل مهجور».

«مِمَّ اختبأتم؟ من ذوي الملاءات البيض [كو كلوكس كلان]؟»

«لا. بل من محصّل الإيجار».

«هو الأمر نفسه».

«ولماذا اختبأتم منه؟»

«آه، أرجوك، كان ذلك سنة ١٩٣٨».

عمّ الضحك طرفي المنصة، ضحكٌ صاخب وعارف. وشرع بعضهم في التنافس على رواية قصص حرمانه في الثلاثينيات.

نمت وشقيقي طوال شهر في عربة شحن.

إلى أين كانت متوجّهة؟

بعيداً، هذا كل ما عرفناه.

هل سبق لأحدكم أن نام في خمّ ترفض حتى الدجاجات دخوله؟

آه، صَهْ يا رجل. أقمنا في مخزن للثلج.

وماذا فعلتم بالثلج؟

أكلناه.

هراء!

لقد نمت على أرضيات كثيرة جداً بحيث أنني في المرة الأولى التي رأيت فيها سريراً حسبته نعشاً.

هل سبق لك أن أكلت الهندباء البرية؟

إنها طيبة في الحساء.

أحشاء الخنزير. يطلقون عليها اسماً فاخراً الآن، لكن اعتاد الجزارون أن يرموها أو يعطونا إياها.

والأقدام أيضاً، والرقاب، كل الفضلات.

صَهْ. إنك تفسد تجارتي.

أخرج فرانك لائحة ماينارد بعدما تلاشى التباهي والضحك.

«أتعرف أيّاً من هذه الأماكن؟ قيل لي إن جمعية الشبان المسيحية هي الأفضل».

تفحّص بيلي العناوين وعبس. «انسَ ذلك»، قال. «رافقني إلى المنزل واقضِ الليل. تعرّف إلى عائلتي. فأنت لن تتمكّن في أي حال من المغادرة الليلة».

«صحيح»، قال فرانك.

«سأعيدك غداً على الموعد إلى المحطة. هل ستأخذ الحافلة جنوباً أم القطار؟ الحافلة أرخص».

«القطار، يا بيلي. إنها الطريقة التي أريد السفر بها ما دام هناك حمّالون».

«إنهم يجنون بالتأكيد مالاً جيّداً. أربعمئة أو خمسمئة في الشهر إضافة إلى الإكرامية».

تحادثنا طوال الطريق إلى منزل بيلي.

«سنشتري لك حذاءً لائقاً في الصباح»، قال بيلي. «وربما نتوقف في «غودويل»(*). اتفقنا؟»

ضحك فرانك. لقد نسي كم يبدو رثّاً. فشيكاغو، التي تنشّطها الريح وسماء الغسق المزهوة بنفسها، ملأى بالمشاة الأنيقي الملبس الذين يتحرّكون بسرعة كما لو أنهم يحاولون الوفاء بالمواعيد في مكان ما على الأرصفة الأعرض من أي طريق في لوتس. أخذ الليل يخيّم في الوقت الذي غادرا فيه وسط المدينة ودخلا الحي الذي يقيم فيه بيلي.

«حيّي زوجتي، أرلين، وهذا هو رجلنا الصغير، توماس».

فكّر فرانك أن أرلين تتمتع بما يكفي من الجمال لتظهر على المسرح. وقد توّجت تسريحة شعرها المرفوع إلى الأعلى جبهتها المرتفعة الملساء التي تعلو عينيها الحادّتين.

سألت أرلين، «أتريدان تناول العشاء؟»

«كلا»، قال بيلي. «سبق أن أكلنا».

«جيّد»، فأرلين تستعد لنوبتها الليلية في مصنع التعدين، ثم طبعت قبلة على قمة رأس توماس الجالس إلى طاولة المطبخ يقرأ كتاباً.

انحنى بيلي وفرانك من فوق طاولة القهوة وأعادا ترتيب ما عليها من توافه الزينة لتوفير مجال لهما للعب الورق والحديث واحتساء الجعة.

(*) مؤسسة للمساعدة الإنسانية.

سأله فرانك: «ما هو مجال عملك؟»

«الفولاذ»، قال بيلي. «لكننا مضربون الآن، ولذا أنضمّ إلى الطابور في الوكالة وأتولّى أي عمل نهاري يسعني الحصول عليه».

عندما قدّم بيلي، في وقت سابق، ابنه لفرانك رفع الصبي يده اليسرى للمصافحة، ولاحظ فرانك أن يمناه مرتخية على جنبه. سأل، وهو يخلط الورق، عمّا حصل لذراع ابنه. رتّب بيلي يديه في وضعية البندقية وقال: «كان شرطي مارّاً بسيارته، وكان لدى توماس مسدس كبسول. وهكذا راح الفتى الذي لم يكن قد جاوز الثامنة من العمر يركض على الرصيف صعوداً ونزولاً وهو يصوبه. وكان المبتدئ الجنوبي يعتقد أن إخوته في الشرطة لا يقدّرون عضوه التناسلي حق قدره».

قال فرانك: «لا يمكنك إطلاق النار على طفل».

«يطلق الشرطيون النار كما يشاءون، فهذه المدينة مدينة رعاع. كادت أرلين أن تجنّ في غرفة الطوارئ، ورموا بها مرتين خارجاً. لكن انتهى الأمر في النهاية بشكلٍ جيد، فذراعه المعطوبة أخرجته من الشارع إلى صف المدرسة. وهو بارع في الرياضيات، ويفوز في كل المسابقات، وتنهال عليه المنح الدراسية».

«قدّم له صبي الشرطة خدمةً إذاً».

«لا. لا، لا، لا. يسوع هو الذي تدخّل وقام بذلك. قال: الزم حدّك، أيها السيّد صبيّ الشرطة. لا تؤذِ أحداً من صغاري. فمن يؤذي أحدهم يعكّرْ عليّ صفو بالي».

جميل، فكّر فرانك. فأمور الكتاب المقدّس تعمل في كل وقت وكل مكان، إلا في منطقة إطلاق النار. «يا يسوع. يا يسوع!» هذا ما قاله مايك. وصاح به ستاف أيضاً. «يا يسوع. أيها الربّ القدير. قُضي عليّ، يا فرانك، يا يسوع، أنجداني».

لم يمانع عبقري الرياضيات في النوم على الأريكة والتخلي عن سريره لصديق والده الجديد.

دنا فرانك من الصبي في غرفة نومه قائلاً: «شكراً، يا صديقي».

«اسمي توماس»، قال الصبي.

«آه، حسناً، توماس. سمعت أنك جيّد في الرياضيات».

«أنا جيّد في كل شيء».

«مثل ماذا؟»

«التربية المدنية، الجغرافيا، الإنكليزية...». وخمد صوته كما لو أمكنه ذكر مزيدٍ من المواضيع التي هو جيد فيها.

«ستذهب بعيداً، يا بني».

«وسأذهب عميقاً».

ضحك فرانك لجسارة ابن الحادية عشرة، وسأله: «ما الرياضة التي تمارسها؟» وهو يعتقد أن الفتى ربّما يحتاج إلى بعض التواضع. لكن توماس رمقه بنظرة شديدة البرودة بحيث شعر فرانك بالإحراج. «أقصد ...»

«أعرف ما تعنيه»، ثم قام بقياس فرانك من أعلى إلى أسفل وقال مستدركاً على المنوال ذاته: «عليك ألا تشرب الخمر».

«أنت مصيب في ذلك».

تبع ذلك صمت قصير فيما وضع توماس لحافاً مطويّاً فوق وسادة ودسّهما تحت ذراعه المشلولة. وعند باب غرفة النوم استدار صوب فرانك وسأل: «هل شاركت في الحرب؟»

«نعم، فعلت».

«وهل قتلت أحداً؟»

«اضطررت إلى ذلك».

«وبِمَ شعرت؟»

«بالسوء. السوء الشديد».

«جيّد أن ذلك جعلك تشعر بالسوء. أنا سعيد».

«وما السبب؟»

«يعني ذلك أنك لست بكاذب».

«أنت عميق، يا توماس». ابتسم فرانك. «ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟»

أدار توماس مسكة الباب بيده اليسرى وفتح الباب وقال: «رجلاً» وغادر.

أمل فرانك، وهو يستقر في ظلال النافذة التي شكّلها ضوء القمر الساقط على حوافها، ألّا تُخضعه هذه الرزانة، التي حافظ عليها حتى الآن من دون ليلي، لتلك الأحلام نفسها. لكن الفرس تظهر دوماً في الليل، ولا تضرب أبداً بحوافرها في ضوء النهار. الويسكي في القطار، وزجاجتا الجعة بعد ذلك بساعات ـ لم تعد لديه مشكلة في تمالك نفسه. غفا بسرعة بعض الشيء مع صورة واحدة فقط لأرجل بأصابع اليدين ـ أو أنها أيدٍ بأصابع الرجلين؟ لكنه أفاق بعد ساعات قليلة من نوم بلا أحلام، على صوت طقّة أشبه بالضغط على زناد مسدّس من دون ذخيرة. جلس فرانك. لم يكن هناك ما يتحرك. ثم شاهد هيئة الرجل القصير القامة، رجل القطار، وقبعته ذات الحرف العريض جليّة في إطار الضوء عند النافذة. مدّ فرانك يده إلى المصباح بجانب السرير. كشف وهجه عن الرجل القصير نفسه في البذلة الفضفاضة ذات اللون الأزرق الباهت.

«هاي! من أنت بحق الجحيم؟ ماذا تريد؟» ونهض فرانك من السرير وتحرّك صوب الشكل. ولم يكد يخطو ثلاث خطوات حتى اختفى الرجل ذو البذلة الفضفاضة.

عاد فرانك إلى السرير وهو يفكّر أنّ حلم اليقظة هذا بالذات ليس على هذا القدر من السوء بالمقارنة مع الأحلام الأخرى التي راودته. فلا كلاب أو طيور تأكل جثماني رفيقيه كما في تلك الهلوسة التي عاشها وهو جالس على مقعد في حديقة الورد في متنزّه المدينة. فهذا الحلم مضحك، بطريقة ما. سبق له أن سمع بهذه البذلات لكنه لم يرَ

أحداً يرتديها قط. ولو كانت دلالة على الرجولة لفضّل مئزراً وتلطيخ جبهته ووجنتيه ببعض الطلاء الأبيض بشكل فني، وأن يحمل رمحاً، بالطبع. لكن أصحاب البذلات الفضفاضة اختاروا زيّاً آخر: أكتاف عريضة، قبعات عريضة الحواف، ساعات جيب، سراويل منتفخة صعوداً من ثنيتي الساقين إلى ما فوق الخصر وحتى الصدر. وفي ذلك ما يكفي لإشغال شرطة الشغب في كلّ من الساحلين.

اللعنة! فهو لا يبغي صحبة شبح أحلام جديد. إلا إن كانت إشارة تحاول إبلاغه شيئاً. أيتعلق الأمر بشقيقته؟ قالت الرسالة «إنها ستموت». ويعني ذلك أنها حيّة لكنها مريضة، مريضة جداً، ومن الواضح أن ليس هناك من يساعدها. إن لم تتمكن سارة، كاتبة الرسالة، أو رئيسها من مساعدتها فلا بد من أنها ستذوي بعيداً من الديار. فالوالدان ماتا، الأب من مرض في الرئة والأم من جلطة. والجدّان، سالم ولينور، لا يُحسبان؛ فهما عاجزان عن السفر، هذا على افتراض أنهما سيهتمان. وربما هذا هو السبب في أن أي رصاصة روسية الصنع لم ترْدِهِ، فيما مات هناك كل المقرّبين إليه. ربما أُبقي على حياته من أجل «سي»، وهذا عادل بما أنها الإنسانة التي كان يهتم بها في الأساس، بنكران ذات دونما مكسب أو منفعة عاطفية. اعتنى بها حتى قبل أن تتمكن من المشي. وأول كلمة نطقت بها كانت «فوانك». وقد خُبّئ اثنان من أسنان الحليب العائدة لها في علبة كبريت المطبخ إلى جانب كُلُل حظّه والساعة المعطّلة التي عثرا عليها عند ضفة النهر. لم تُصب «سي» بأي رضة أو جرح إلا واعتنى

بها. الأمر الوحيد الذي لم يتمكن من فعله لها هو محو الأسى، أو لعله كان ذعراً، من عينيها عند التحاقه بالجندية. حاول أن يخبرها أن الجيش هو الحل الوحيد. فلوتس تخنقه وتقتله وصديقيه المفضلين. اتفقوا جميعهم على ذلك. طمأن فرانك نفسه بأن «سي» ستكون بخير.

لكنها لم تكن كذلك.

بقيت أرلين تغط في النوم، فحضّر بيلي الفطور لثلاثتهم.

«متى تنتهي نوبتها؟»

سكب بيلي عجينة الفطيرة المحلاة في المقلاة الحامية. «إنها تعمل من الحادية عشرة إلى السابعة. سوف تستيقظ قريباً لكنني لن أراها حتى المساء».

«كيف ذلك؟» وقد ثار فضول فرانك. فقواعد العائلات الطبيعية وتكيّفاتها فتنة لم يرتقِ فرانك إلى مستوى حسدها.

«سأصل، بعد مواكبتي توماس سيراً إلى المدرسة، متأخراً على الطابور في الوكالة لأننا سنذهب، أنت وأنا، للتسوّق. إلى ذلك الحين تكون أفضل أعمال النهار قد أُعطيت بالفعل. سأرى ما الذي يمكنني الحصول عليه مما تبقى. لكن علينا التسوّق أولاً، فأنت تبدو مثل ..».

«لا تقل ذلك».

لم يكن عليه قول ذلك، وكذلك المرأة في متجر «غودويل». قادتهما إلى طاولة وطوت الملابس وأومأت برأسها صوب رفّ من المعاطف المعلّقة والسترات. تم الاختيار سريعاً. فكلّ غرض كان نظيفاً ومكوياً ومرتّباً بحسب الحجم. حتى رائحة جسد المالك السابق كانت لطيفة. واحتوى المتجر على غرفة لارتداء الملابس حيث يمكن لمتسوّل أو لربّ عائلة محترم أن يبدّل ثيابه ويرمي تلك البالية في سلة المهملات. شعر فرانك، وقد ارتدى ثياباً ملائمة، بما يكفي من الفخر لأخذ ميداليته من سروال الجيش وشبكها على جيب صدره.

«حسناً». قال بيلي. «علينا الآن بحذاء لرجل بالغ. أتريد 'توم ماكان'، أم 'فلورشايم؟'»

«ليس أيّاً منهما، فأنا لن أقوم بالرقص. أريد حذاء عمل».

«فهمت. ألديك ما يكفي من المال؟»

«نعم».

لاعتقدت الشرطة ذلك أيضاً، لكن أفرادها اكتفوا في خلال التفتيش العشوائي خارج متجر الأحذية بتربيت الجيوب من دون تفتيش داخل جزمات الشغل. ومن الرجلين الآخرين اللذين كانا يقفان في مواجهة الجدار تمت مصادرة مطواة أحدهما وورقة من فئة الدولار من الآخر. وضع أربعتهم أيديهم على غطاء محرّك سيارة الدورية المركونة عند المنعطف فلاحظ الضابط الأصغر سنّاً ميدالية فرانك.

«كوريا؟»

«نعم، سيدي».

«هاي، ديك. إنهما من المحاربين القدامى».

«صحيح؟»

«نعم. انظر». وأشار الضابط إلى ميدالية الخدمة الخاصة بفرانك.

«هيا. امضِ في سبيلك، يا صاح».

لم تستحق حادثة الشرطة التعليق فسار فرانك وبيلي مبتعدين بصمت. ثم توقفا عند بسطة أحد باعة الرصيف لشراء محفظة نقود.

«إنك ترتدي بذلة الآن، ولا يمكنك أن تمد يدك إلى حذائك مثل الولد الصغير كلما أردت شراء علبة علكة»، ولكم بيلي ذراع فرانك.

«بكم؟» وتفحّص بيلي المحفظات المعروضة.

«بربع».

«ماذا؟ فرغيف الخبز لا يكلّف سوى ١٥ سنتاً».

«وبالتالي؟» وحدّق البائع بزبونه. «المحفظات تدوم أطول. هل ستشتري أم لا؟»

بعد الشراء رافق بيلي فرانك طول الطريق إلى مطعم «بوكرز» حيث استندا إلى لوح الزجاج وتصافحا وتواعدا على تبادل الزيارات وافترقا.

تناول فرانك القهوة وغازل خادمة المنضدة إلى أن حان وقت ركوب القطار الذي سيأخذه جنوباً إلى جورجيا و«سي» وغير ذلك مما لا يعرفه أحد.

- ٣ -

كانت والدتي حاملاً عندما خرجنا سائرين من مقاطعة بانديرا في تكساس. كانت ثلاث عائلات، وربما أربع، تمتلك شاحنات أو سيارات حمّلت فيها كل ما أمكنها تحميله. لكن تذكّر أن ما من أحد يستطيع تحميل أرضه ومحاصيله وماشيته. فمن سيعلف الخنازير أو يطلقها في البراري؟ وماذا عن تلك البقعة من الأرض خلف الزريبة؟ فهي تحتاج إلى الحراثة في حال أمطرت. سارت معظم العائلات، على غرار عائلتي، أميالاً إلى أن عاد السيد غاردنر لنقل مزيدٍ منّا بعدما أنزل جماعته عند حدود الولاية. اضطررنا إلى ترك عرباتنا التي تُجرّ باليد وهي ملأى بالأغراض لنتكوّم في سيارته، مقايضين البضائع بالسرعة. بكت ماما، لكن الطفل الذي تحمله أهم من الغلاّيات وجرار الكبيس وأغطية الأسرّة، واكتفت بسلّة من الملابس أمسكت بها عند ركبتيها. وحمل بابا بعض الأدوات في كيس وسرج ستيلاّ، فرسنا التي لن نراها ثانيةً. تابعنا المسير بعدما أوصلنا السيّد غاردنر إلى أبعد ما يمكنه. أخذ نعل حذائي يصطفق إلى أن ربطه بابا برباط حذائه. سمح لنا الذين يجرّون عربات النقل مرتين بالركوب على سطح عرباتهم. حدّث ولا حرج عن التعب. وحدّث عن الجوع. لقد أكلتُ النفايات في السجن وفي كوريا وفي المستشفيات وعن

الموائد ومن بعض براميل القمامة، إلا أنه لا يمكن مقارنة أيّ من تلك النفايات بفضلات الطعام في مخازن المواد الغذائية. أكتب عن ذلك، لِمَ لا تفعل؟ أذكر وقوفي في الطابور في كنيسة المخلّص أنتظر الحصول على صحن من الجبن الجاف القاسي، وقد أخذ لونه يميل إلى الأخضر، ومن أقدام الخنازير المخلّلة، وقد تشرّب خلَّها الطعامُ البائت الرديء.

هناك سمعت ماما المرأة التي أمامها تشرح للمتطوع كيفية تهجئة اسمها ولفظه. وقد وصفت ماما ذلك بأنه كان ألطف شيء وأن اسمها كان أشبه بالموسيقا وسط الجدال والحرّ المنبثق من الحشد. وبعد ذلك بأسابيع، عندما تبين أن الطفل الذي أنجبته على فراش في قبو القسيس بايلي هو فتاة، أطلقت عليها ماما اسم إيسيدرا، مع الحرص على لفظ المقاطع الصوتية الثلاثة كلّها. وانتظرت، بالطبع، الأيام التسعة قبل إطلاق الاسم، لئلا ينتبه الموت إلى الحياة الجديدة ويلتهمها. ودعاها الجميع «سي»، باستثناء ماما. ولطالما اعتقدتُ أنه كان أمراً لطيفاً أنّها فكرت في الاسم وثمّنته. وقد سُمّيتُ فرانك، على اسم عمّي. أبي اسمه لوثر وأمي أيدا. أما الجزء الجنوني فهو اسم عائلتنا، ماني (المال) الذي لا نملك أياً منه.

لن تعرف ما هو الحرّ فعلاً إلى أن تعبر الحدود صيفاً من تكساس إلى لويزيانا. ولن يسعك الخروج بكلمات يمكنها وصفه.

تذوي الأشجار، وتُشوى السلاحف في قوقعاتها. صف ذلك إن استطعت.

- ٤ -

أحد أسوأ الأمور التي يمكن أن تحدث لفتاة هو أن تكون لها جدة لئيمة. يُفترض بالأمهات صفعك ورعايتك إلى أن تكبر وتميّز الخطأ من الصواب. أما الجدات، ولو قسوْنَ على أولادهن، فغفورات لأحفادهن وسخيات معهم. أليس كذلك؟

وقفت «سي» في المغطس المصنوع من التوتياء وخطت بضع خطوات نحو المغسلة وهي تقطر ماء. ملأت دلواً من الصنبور وسكبته في مياه الحوض التي أخذت تسخن، وعاودت الجلوس فيه. أرادت أن تطيل المكوث في الماء البارد لكن شمس ما بعد الظهيرة الواهنة برقّة جعلتها تغيّر رأيها. امتزجت الحسرات والأعذار والاستقامة والذاكرة الكاذبة وخطط المستقبل بعضها مع بعض أو اصطفّت كالجنود. فكّرت أن هذا، في الحقيقة، ما يجب أن تكون عليه الجدّات. لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق بالنسبة إلى الصغيرة «إيسيدرا ماني». ولمّا كانت الماما والبابا يعملان من الفجر وحتى حلول الظلمة، فإنهما لم يعلما قط أن السيدة لينور تسكب الماء بدل الحليب على فطور القمح المجروش الذي تتناوله «سي» وشقيقها، أو أنهما نُبّها إلى ضرورة الكذب في شأن آثار

الضرب والرضوض والقول إنها من جراء لعبهما في الخارج عند الجدول حيث تنمو أشواك العلّيق والتوت البرّي. وحتى جدهما سالم لاذ بالصمت. قال فرانك إن سبب ذلك كان خوفه من أن تهجره السيدة لينور على غرار ما فعلت زوجتاه السابقتان. فلينور، التي قبضت خمسمئة دولار من التأمين على الحياة بعد وفاة زوجها الأول، كانت غنيمة حقيقية لرجل عجوز غير قابل للتوظيف. ثم إن لديها سيارة فورد ومنزلها ملكها. وبلغت قيمتها بالنسبة إلى سالم ماني حدّاً لم يُصدر معه أي صوت عندما قُسم لحم الخنزير المقدّد بينهما ولم يحصل الأولاد منه إلا على الرائحة فقط. فضلاً عن أن الجدّين يقدمان لهما خدمة كبيرة بالسماح لأقرباء مشرّدين بالإقامة في بيتهما بعد هروب العائلة من تكساس. اعتبرت لينور ولادة «سي» على الطريق فألاً سيئاً بالنسبة إلى مستقبلها، وقالت إن النساء المحترمات يلدن الأطفال في البيوت، في أسرّة تسهر عليها نساء مسيحيات جيدات يعرفن ما الذي يتوجّب عليهن عمله. صحيح أن نساء الشوارع، المومسات، يمضين وحدهن إلى المستشفى لدى حملهن، لكنهن يمتلكن على الأقل سقوفاً تظلّلهن لدى مجيء أطفالهن. أما أن يولد المرء في الشارع ـ أو في البالوعة، كما تصف ذلك في العادة ـ فمؤشر إلى حياة خاطئة وتافهة.

كان منزل لينور بالكاد يتّسع لشخصين، وربما ثلاثة، ولكن ليس للجدين مع البابا والماما والعم فرانك وولدين ـ أحدهما طفلة تعوي. وتضاعف، على مر السنين، الانزعاج من المنزل المكتظ، واختارت

لينور، التي تعتبر نفسها أرفع شأناً من جميع من عداها في لوتس، أن تركّز استياءها على الفتاة الصغيرة المولودة «في الشارع»، فكانت تقطّب حاجبيها كلّما نظرت إلى الفتاة وهي تدخل، وتقلب شفتيها كلّما أوقعت ملعقة، أو تعثرت بعتبة الباب، وكلّما رأت ضفيرة من ضفائرها متفلّتة. وهناك، زيادة على ذلك كلّه، التمتمة المتعلّقة «بطفلة البالوعة» وهي تسير مبتعدة عن الخذلان الذي تسببه حفيدة زوجها دائماً. كانت «سي» في تلك الأعوام تنام مع والديها على الأرض، على فراش رقيق من القش ليس أفضل بكثير من ألواح الصنوبر التي تحتها. وكان العم فرانك ينام على كرسيين متجاورين؛ فيما كان فرانك الصغير ينام في الشرفة الخلفية على الأرجوحة الخشبية المائلة، حتى وهي تمطر. وكان والداها، لوثر وأيدا، يعمل كل منهما في وظيفتين: كانت أيدا تعمل في قطاف القطن أو غيره من المحاصيل نهاراً وتنظّف أكواخ الخشب في المساء؛ وكان لوثر والعم فرانك يعملان في الحقول لدى اثنين من المزارعين في جيفري المجاورة ويسعدان كثيراً بتولي الأعمال التي يتخلّى عنها الرجال الآخرون. لقد التحق معظم الشبان بالحرب ولم يعودوا، بانتهائها، للعمل في القطن والفستق أو الخشب. ثم تطوّع العم فرانك أيضاً، والتحق بالبحرية طبّاخاً، وفرح بذلك لأنه لم يضطر إلى التعامل مع المتفجرات. لكن سفينته غرقت على أي حال، وعلّقت السيدة لينور النجمة الذهبية على النافذة كما لو أنها هي، لا إحدى زوجتي سالم السابقتين، الأم المحترمة والوطنية التي خسرت ابناً. أدّى عمل أيدا في مخزن بيع الخشب إلى إصابتها بربو قاتل، مع أنه حقّق نتيجةً

جيدة لأنهم تمكّنوا بنهاية تلك الأعوام الثلاثة من الإقامة مع لينور من استئجار مسكن من «شيبرد العجوز» الذي كان يقود سيارته صباح كل يوم سبت، من جيفري، ليحصّل الإيجار.

كانت «سي» تتذكّر ما شعروا به جميعهم من راحة وفخر بحصولهم على حديقتهم الخاصة وعلى دجاجاتهم التي تبيض. وكان لدى آل ماني ما يكفي من المال ليشعروا أن هذا المكان الذي بات يمكن فيه للجيران عرض صداقتهم بدلاً من إظهار الشفقة هو ديارهم. كان جميع من في الجوار قساة متجهمين، باستثناء لينور، لكنهم سرعان ما أصبحوا معطائين. وأصرّ كل من كان يمتلك فائضاً من الفلفل أو الكرنب على أن تحصل أيدا عليه. وتوفّرت كذلك البامية والسمك الطازج من الجدول ومكيال من الذرة وكل أنواع الطعام الذي لا يمكن هدره. وأرسلت إحدى النسوة زوجها لتدعيم درج شرفتهم المائل. وكانوا كرماء مع الغرباء، فكانوا يرحبون بعابري السبيل الدخلاء حتى، وبالأخص الفار منهم من العدالة، مثل ذلك الرجل، المدمّى والمذعور، الذي غسلوه وأطعموه وقادوه بعيداً على ظهر بغل. كان أمراً رائعاً أن يكون لهم منزلهم الخاص حيث يمكنهم جعل السيد هايوود يضعهم على لائحته الشهرية للأشخاص الذين يحتاجون المؤن من المتجر العام في جيفري. وكان يعود أحياناً ومعه قصص فكاهية مصورة وعلكة فقاعية وكرات النعناع المجانية للأولاد. كانت هناك في بلدة جيفري أرصفة وشبكات مياه ومتاجر ومكتب للبريد ومصرف ومدرسة. أما لوتس فكانت منفصلة عنها، لا أرصفة فيها ولا سباكة داخلية، مؤلفة من قرابة خمسين منزلاً

وكنيستين تستخدم إحداهما نساء الكنيسة لتعليم القراءة والحساب. فكّرت «سي» أن من الأفضل لو كان هناك مزيد من الكتب للمطالعة ـ وليس فقط «حكايات إيسوب» وكتاب يحتوي على مقاطع من الكتاب المقدّس للصغار ـ وأنه سيكون أفضل من ذلك بكثير لو يُسمح لها أن تلتحق بالمدرسة في جيفري.

ذاك هو، في اعتقادها، سبب هربها مع شخص غير أهل للثقة. ولعرفتْ أفضل من ذلك لو أنها لم تكن على هذا القدر من الجهل، ولولا أنها تقيم في مكانٍ مهمل هو ليس حتى بلدة؛ إذ لا يوجد فيه إلا الأعمال الرتيبة، ومدرسة الكنيسة، وما من شيء آخر يمكن القيام به. وهي معرّضة منذ شروق الشمس وحتى غروبها للمراقبة، والمراقبة، والمراقبة، من كل شخص بالغ، وتلقّي الأوامر، ليس من لينور وحدها بل من كل راشد في البلدة. تعالي، يا فتاة، ألم يعلّمك أحد كيف تخيّطين؟ بلى يا سيدتي. ثم لماذا تتدلّى حاشية ثوبك بهذا الشكل؟ نعم يا سيدتي؛ أقصد لا يا سيدتي. أهذا أحمر شفاه على فمك؟ لا يا سيدتي. وما هو إذاً؟ كرز يا سيدتي، أقصد توت العلّيق، فقد تناولت البعض منه. كرز، يا للكذب. امسحي فمك. انزلي عن تلك الشجرة، أتسمعينني؟ اربطي حذاءك واتركي من يدك تلك الدمية المصنوعة من الخرق والتقطي مكنسة. ارفعي رجلك عن الأخرى. تخلصي من العشب الضار في تلك الحديقة. قفي منتصبة. لا تعارضيني. وعندما بلغت «سي» وبضع فتيات أخريات الرابعة عشرة وشرعن في الحديث عن الفتيان، حُرمت من أي مغازلة حقيقية بسبب شقيقها الأكبر فرانك. عرف الصبية أنها مُحرّمة بسببه، وهذا

ما جعلها، حين تطوّع فرانك وصديقاه المفضّلان وغادروا المدينة، تقع في حب ما وصفته لينور بأنه أول شيء تراه يرتدي سروالاً بحزام بدلاً من بزّات العمال المؤلفة من قطعة واحدة.

كان اسمه برنسيبال، لكنه كان يدعو نفسه باسم برينس. جاء من أتلانتا في زيارة لمنزل عمته، وشكّل وجهاً جديداً وسيماً ينتعل حذاءً لمّاعاً رقيق الفعل. أعجبت الفتيات جميعهن بلكنة ابن المدينة الكبيرة وما اعتقدنه معرفته وخبرته الواسعة. وكانت «سي» أكثرهن إعجاباً به.

وها إنها، وهي ترشرش الماء على كتفيها، تتساءل للمرة الألف لماذا، على الأقل، لم تسأل العمة التي يزورها عن سبب إرساله إلى هذا المكان النائي بدلاً من قضائه الشتاء في المدينة الكبيرة السيئة. لكنها، وهي تشعر أنها تطوف على غير هدى في الفضاء الذي سبق أن وُجد فيه شقيقها، كانت بلا أي دفاع، وفكّرت أن ذلك هو الوجه الآخر لوجود شقيق ذكي وصارم على مقربة منك يعتني بك ويحميك ـ فأنتِ بطيئة في تنمية عضلات دماغك. ثم إن برينس كان يحب نفسه حباً شديداً ومطلقاً بحيث كان يستحيل التشكيك في قناعاته. فإن أخبرها برينس أنها جميلة فستصدقه، وإن قال لها وهي في الرابعة عشرة إنها امرأة فستصدّق ذلك أيضاً. وحين قال أريدك لنفسي، فإن لينور هي التي أجابت «ليس قبل أن تصبحا زوجين شرعاً»، مهما عنت كلمة «شرعاً». فإيسيدرا لم تكن تمتلك حتى شهادة ولادة، والمحكمة تقع على بعد أكثر من مئة ميل. فجاءوا بالقسيس ألسوب الذي باركهما ودوّن اسميهما في سجل ضخم قبل أن يعودا سيراً

على الأقدام إلى منزل أهلها. ولما كان فرانك قد التحق بالجيش، فقد ناما في سريره حيث وقع الأمر الكبير الذي كان يحذّر منه الناس أو يضحكون في شأنه. لم يكن موجعاً كثيراً بقدر ما كان مملاً. فكّرت «سي» أن الأمر سيتحسّن لاحقاً، ولكن تبيّن أن الأحسن هو ببساطة أكثر، ومع ازدياد الكمية باتت اللذة تكمن في اقتضابها.

لم تكن هناك وظيفة في لوتس أو من حولها يرتضيها برينس لنفسه فأخذها إلى أتلانتا. كانت «سي» تتطلّع قدماً إلى حياة متألقة في المدينة حين علمت ـ بعد أسابيع قليلة من تفحّص المياه التي تخرج عند فتح الصنبور، والمراحيض الخالية من الذباب، وأضواء الشارع التي تسطع لفترة أطول من الشمس وتضاهي قناديل الليل جمالاً، والنساء بالكعوب العالية والقبعات الرائعة يهرولن إلى الكنيسة مرتين وأحياناً ثلاث مرات في اليوم، وفي أعقاب الفرح الممتلىء بالامتنان والبهجة المذهولة بالفستان الجميل الذي اشتراه لها برينس ـ أن برنسيبال إنما تزوجها من أجل سيارة.

كانت لينور قد اشترت سيارة «ستايشن» من المؤجّر شيبرد، ولما كان سالم لا يعرف القيادة فقد أعطت لينور سيارة الفورد القديمة للوثر وأيدا، مع إبلاغهما بضرورة إعادتها إن تعطّلت سيارة الستايشن. سمح لوثر مرات قليلة لبرينس باستخدام الفورد لتأدية بعض الخدمات: رحلات إلى مكتب البريد في جيفري لتسلّم الرسائل أو إرسالها إلى حيث يتمركز فرانك، في كنتاكي في البداية ثم في كوريا. كما أنه قاد السيارة مرةً إلى المدينة لجلب دواء الحلق لأيدا عندما ضاق تنفُّسها أكثر. وناسبت سهولة وصوله إلى السيارة

الجميع لأن برينس غسل غبار الطريق الأبدي الذي كان يغطيها كالدقيق وغيّر شموع الإشعال والزيت ولم يُقلّ أبداً الفتية الذين رجوه الصعود معه في السيارة. وبات من الطبيعي أن يسمح لوثر للزوجين بقيادتها إلى أتلانتا ما داما قد وعدا بإعادتها في غضون بضعة أسابيع.

وهو ما لم يحدث.

وها هي الآن وحيدة تماماً، تجلس في يوم أحد في مغطس التوتياء متحدّيةً بالماء البارد حَرّ النسخة الجورجية للربيع فيما برينس يطوف بالسيارة ويضغط بحذائه ذي النعل الرقيق على دوّاسة البنزين، وهي لا تدري هل هو في كاليفورنيا أم في نيويورك. عندما هجرها برينس استأجرت «سي» غرفة أقل تكلفة في شارع هادئ، وهي غرفة لها فيها امتياز استخدام المطبخ وحوض الاستحمام. وأصبحت ثيلما، التي تعيش في شقة كبيرة فوقها، صديقة لها، وساعدتها في الحصول على عمل في غسل الصحون في مطعم بوبي، «ريب هاوس»، صاهرةً الصداقة بالنصح الفظ بصراحته.

«لا أحمق مثل أحمق الريف. لِمَ لا تعودين إلى أهلك؟»

فكّرت «سي»: «من دون السيارة؟» يا إلهي! فقد سبق للينور أن هدّدت بتوقيفها. وعندما ماتت أيدا سافرت «سي» إلى المأتم بالسيارة بعدما طلب بوبي من الطاهي أن يأخذها بها. وبالرغم من أن المأتم كان مثيراً للشفقة ـ نعش مصنوع محلّياً من خشب الصنوبر، وانعدام الزهور ما عدا الغصنين اللذين قطفتهما من شُجَيْرة العسلة

ـ إلا أنه لم يكن هناك ما يوازي الأذى الذي تسبب به ما أطلقته لينور من اتهامات شتّامة. سارقة، حمقاء، عاهرة؛ وأن عليها استدعاء رئيس الشرطة. وأقسمت «سي»، برجوعها إلى المدينة، على عدم العودة إلى هناك، وقد وفت بوعدها هذا حتى عندما توفي والدها بعد ذلك بشهر.

وافقت إيسيدرا ثيلما على أنها حمقاء، لكنها كانت تريد أكثر من أي شيء آخر أن تكلّم شقيقها. فرسائلها إليه كانت تتعلق بالطقس وبما يدور من ثرثرات في لوتس. وهذا نفاق. لكنها كانت تعلم أنه، إذا تمكّنت من رؤيته وإخباره، لن يضحك منها أو يتشاجر معها أو يدينها، وأنه سيحميها، مثلما كان يحميها دائماً، من وضعها السيّئ، كما فعل عندما كان مايك وستاف وبعض الصبية الآخرين يلعبون البيسبول في أحد الملاعب، وكانت «سي» جالسةً على مقربة منهم مستندةً إلى شجرة جوز وقد أضجرتها مباراة الصبية، وهي تنظر إلى اللاعبين بشكلٍ متقطّع مركّزةً اهتمامها الشديد على الصباغ الأحمر الكرزي الذي تنتزعه عن أظافرها آملةً في أن تزيله كلّه قبل أن توبّخها لينور على «التباهي» بنفسها الصغيرة الفاسقة، ولم ترفع نظرها لترى فرانك يغادر القاعدة ومعه مضربه إلا لأن الآخرين أخذوا يصيحون: «إلى أين تذهب، يا رجل؟ هاي، هاي، هل خرجت من اللعب؟»، حيث سار ببطء مبتعداً عن الملعب واختفى بين الأشجار المحيطة به، ودار من حولها، كما علمت ذلك لاحقاً، وأصبح فجأةً وراء الشجرة التي تستند إليها، وهوى بمضربه مرتين على ساقي الرجل الذي لم تلحظ حتى أنه يقف وراءها. هرع مايك والآخرون لرؤية ما

لم تره، ثم ركضوا جميعهم وفرانك يجرّها من ذراعها، دون أن يلتفت خلفه. خطرت لها أسئلة: «ماذا حدث؟ من يكون هذا الرجل؟» لم يجب الصبية واكتفوا بتمتمة الشتائم. شرح لها فرانك الأمر بعد ذلك بساعات. قال إن الرجل ليس من لوتس، وأنه اختبأ وراء الشجرة وهو يكشف لها عن عورته. اعترت الرجفة «سي» لما ألحّت على شقيقها ليحدّد لها معنى ذلك، وفعل. وضع فرانك إحدى يديه على قمة رأسها والأخرى على مؤخرة عنقها، وفعلت أصابعه فعل البلسم، وتوقفت الرجفة وما رافقها من قشعريرة. كانت دوماً تعمل بنصيحة فرانك: أخذت تميّز التوت البري السام، وتصيح عندما تكون في منطقة فيها أفاعٍ، وتعلّمت الاستخدامات الطبية لبيت العنكبوت. كانت تعليماته محدّدة، وتحذيراته واضحة.

لكنه لم يحذّرها قط ممّن ليسوا أهلاً للثقة.

تجمّعت أربعة من طيور السنونو على العشب في الخارج، وأخذت، وقد بدت متباعدة بتساوٍ ورفق، تنقّب بمناقيرها في أوراق العشب الذي أخذ يجف. ثم طارت كلّها، كما لو أنها استُدعيت، إلى إحدى أشجار جوز البقّان. توجهت «سي» إلى النافذة، وقد لفّت نفسها بمنشفة، ورفعتها تماماً إلى ما دون المكان الذي تمزّق فيه الغربال الواقي من الحشرات. بدا وكأن الهدوء يحلّ، ثم إذا به، «بوم»، أشد وطأةً من الضجيج. فقد كان أشبه بهدوء ما بعد الظهر والمساء في بيتهم في لوتس حين تبدأ هي وشقيقها بالتفكير في ما سيفعلانه أو يتحدثان عنه. كان والداهما يعملان ست عشرة ساعة في اليوم وبالتالي بالكاد يتواجدان في البيت فكانا يخترعان

المغامرات، أو يتحرّيان الأراضي المحيطة. وغالباً ما كانا يجلسان عند الجدول، وقد استندا إلى شجرة غار ضربتها الصاعقة، وقد احترقت قمتها فتركها ذلك مع غصنين ضخمين في الأسفل، وقد امتدا أشبه بذراعين. كان فرانك يسمح لها باللحاق به حتى وهو مع صديقيه مايك وستاف. وتوثّقت الأمور بين الأربعة كما يجب على العائلة أن تفعل. تذكّرت كم كانت زياراتهم غير المتوقعة لبيت جديها لا تلقى الترحاب إلا إذا كانت لينور تحتاجهم للقيام ببعض الأعمال. كان سالم قد بات مملاً بما أنه التزم الصمت حيال كل شيء ما عدا وجبات طعامه. وتمثّلت حماسته الوحيدة، في ما عدا الطعام، في لعب الورق أو الشطرنج مع عجوز آخر. كان والداهما يعودان من العمل إلى المنزل وهما منهكان بحيث يصبح كل ما يظهرانه من عاطفة أشبه بالموسى: حاد، قصير، وهزيل. وكانت لينور هي الساحرة الشريرة. كان فرانك و «سي» يشبكان أيديهما، أشبه بهانسل وغريتل منسيّين، فيبحران في الصمت ويحاولان تخيّل المستقبل.

شعرت «سي» بقلبها ينفطر وهي تقف عند النافذة وقد التفّت بالمنشفة الخشنة. ولو كان فرانك هنا للمس مرةً أخرى قمة رأسها بأربعة من أصابعه، أو لاطف بإبهامه مؤخرة عنقها. لا تبكي، كانت الأصابع تقول؛ فالكدمات ستختفي. لا تبكي، فماما متعبة؛ إنها لم تتعمّد ذلك. لا تبكي، لا تبكي يا فتاة؛ فأنا هنا تماماً. لكنه ليس هنا أو في أي مكان قريب. وفي الصورة التي بعث بها إلى الديار، وظهر فيها محارباً مبتسماً بالبزة وحاملاً بندقية، بدا كما لو أنه ينتمي إلى مكان آخر، مكان أبعد من جورجيا ولا يشبهها. وقد أرسل، بعد

شهرين على تسريحه، بطاقة «السِنْتَيْن» البريدية ليخبرها أنه حيّ. وردّت «سي» عليها كاتبة:

«سلام يا شقيقي. كيف حالك؟ أنا بخير. لقد حصلت على عمل لا بأس به في مطعم، لكنني أبحث عن عملٍ أفضل. راسلني متى استطعت. مع إخلاصي لك. شقيقتك».

إنها تقف وحدها الآن؛ أخذ جسمها يتعرّق وقد تخلّص من كل ما نتج عن الانتقاع في الحوض من فائدة. نشّفت الرطوبة من تحت ثدييها ثم مسحت العرق عن جبينها. رفعت درفة النافذة إلى أعلى حتى بان التمزّق في الغربال. وعادت طيور السنونو جالبةً معها نسيماً خفيفاً ورائحة القصعين الذي ينمو عند طرف الفناء. راقبت «سي» وهي تفكّر: هذا ما يُقصد إذاً في تلك الأغاني الحزينة واللطيفة. «كدت، عندما خسرت طفلي، أفقد عقلي»... لكن تلك الأغاني تتعلّق بالحب الضائع، في حين أن ما تشعر به أكبر من ذلك. فهي محطّمة. ليست مكسورة بل محطّمة، محطّمة إلى أجزائها المنفصلة.

انتعشت أخيراً ونزعت عن التعليقة الفستان الذي اشتراه برنسيبال لها في يومهما الثاني في أتلانتا، وعلمت أنه لم يفعل ذلك عن سخاء بل لأنه خجل من ملابسها الريفية. قال إنه لا يمكنه أخذها إلى العشاء أو إلى حفلة أو إلى لقاء عائلته في ما ترتديه من ثياب بشعة. بيد أنه اختلق، بعد شرائه الثوب الجديد، العذر تلوَ العذر، عن سبب قضاء معظم الوقت وهما يجولان بالسيارة بل وحتى يتناولان الطعام في الفورد من دون أن يلتقيا أيّاً من أصدقائه أو عائلته.

«أين عمّتك؟ ألا يتوجب علينا المضي لزيارتها؟»

«كلا، فهي لا تحبني وأنا لا أحبها أيضاً».

«لكننا ما كنا لنلتقي لولاها».

«آه. صحيح».

ومع ذلك بقي ملمس الحرير الصناعي لثوبها يروقها، بالرغم من أن أحداً لم يره، وكذلك فجور أزهار الداليا الزرقاء على قماشه الأبيض. لم يسبق لها أن شاهدت ثوباً طُبعت عليه أزهار. ما إن ارتدت ثيابها حتى جرّت حوض الاستحمام عبر المطبخ إلى خارج الباب الخلفي، ووزعت مياهه باعتدال وبطء وحرص على العشب الذابل، نصف دلو هنا، وبعض أكثر هناك، وحرصت على ترك قدميها تترطبان ولكن ليس ثوبها.

أزّ البعوض فوق قصعة العنب الأسود على طاولة المطبخ، فطردته «سي» بيدها وغسلت الفاكهة وجلست تمضغها بصوت طاحن وهي تفكّر في وضعها: فيوم غد هو الاثنين؛ ولديها أربعة دولارات؛ والإيجار الذي يستحق في نهاية الأسبوع ضعف ذلك. ستقبض يوم الجمعة المقبل ثمانية عشر دولاراً، أي أكثر بقليل من ثلاثة دولارات في اليوم. وهكذا ستحصل على ثمانية عشر دولاراً يُطرح منها ثمانية ستخرج من جيبها، ما يتركها مع نحو أربعة عشر دولاراً عليها أن تشتري بها كل ما تحتاجه الفتاة لتكون حسنة الطلعة وتحتفظ بعملها وتتقدم فيه. وتمثّل أملها في الانتقال من غسالة صحون إلى طباخة للطعام السهل والسريع وربما إلى نادلة تتقاضى

الإكرامية. فقد غادرت لوتس خالية الوفاض، وتركها برينس من دون شيء، باستثناء الثوب. كانت بحاجة إلى صابون وثياب داخلية وفرشاة ومعجون للأسنان ومزيل للرائحة وثوب آخر وحذاء وجوارب وسترة وفوط صحّية، وربما تبقى لها ما يكفي لحضور فيلم في مقعد في الشرفة بخمسة عشر سنتاً. لحسن حظها أن بإمكانها أن تتناول وجبتين مجانيتين عند بوبي. والحل: مزيد من العمل ـ وظيفة ثانية أو وظيفة أفضل.

واحتاجت لذلك إلى رؤية ثيلما، جارتها التي فوقها. فتحت «سي» الباب بعدما طرقته بحياء فوجدت صديقتها تجلو الصحون في المجلى.

سألتها ثيلما: «شاهدتك في الخارج. أتعتقدين أن سكب المياه المتّسخة سيعيد إلى الفناء خضرته؟»

«لا يمكنه أن يضرّ».

«بل يمكنه». ونشفت ثيلما يديها. «هذا أكثر ربيع أشهده حرارة. والبعوض يرقص رقصته الدموية طوال الليل. يكفي أن يشمّ رائحة الرطوبة».

«آسفة».

«لا شكّ لديّ في ذلك». ربّتت ثيلما على جيب مريولها بحثاً عن علبة سجائر «Camel». أشعلت واحدة وتأمّلت صديقتها. «إنه ثوب جميل. من أين حصلت عليه؟» وانتقلتا معاً إلى غرفة الجلوس وارتمتا على الأريكة.

«اشتراه لي برينس فور انتقالنا إلى هنا».

«برينس». قالت ثيلما باستهجان. «تعنين الضفدع. لقد رأيتُ عدداً كبيراً من الفاشلين، ولكن لم يسبق لي أن رأيت فاشلاً مثله. هل تعرفين مكانه؟».

«لا».

«أتريدين أن تعرفي؟».

«لا».

«آه، أشكر اللّه على ذلك».

«أحتاج إلى عمل، يا ثيلما».

«لديك واحد. لا تقولي إنك تركتِ مطعم بوبي؟».

«لا. لكنني أحتاج إلى ما هو أفضل. بمعاش أفضل. فأنا لا أحصل على الإكرامية وعليّ أن آكل في المطعم، سواء أحببت ذلك أم لم أحبه».

«طعام بوبي هو الأفضل، ولا يمكنك تناول ما هو أفضل في أي مكان آخر».

«أعرف، لكنني أحتاج إلى عمل حقيقي يمكّنني من الادّخار. وكلا، لن أعود إلى لوتس».

«لا يمكنني لومك على ذلك، فصراخ عائلتك عالٍ وجنوني». اتكأت ثيلما إلى الخلف وفتلت لسانها على شاكلة أنبوب لنفث الدخان.

كانت «سي» تكره رؤيتها تفعل ذلك، لكنها أخفت نفورها.

«لؤماء، ربما. لكنهم ليسوا مجانين».

«آه نعم؟ أطلقوا عليكِ اسم إيسيدرا، أليس كذلك؟».

«ثيلما؟» وأسندت «سي» مرفقيها على ركبتيها ونظرت بعينين متوسلتين إلى صديقتها. «فكّري في الأمر رجاءً».

«حسناً، حسناً. لنقل، من الناحية العملية، أنك قد تكونين محظوظة. لقد تناهى إليّ أمر منذ أسبوعين وأنا في محل ريبا. يمكنك التقاط كل ما يستحق المعرفة في محل التجميل التابع لها. هل علمتِ أن زوجة القسيس سميث حامل من جديد؟ لديهما أحد عشر طفلاً أصلاً وهناك آخر في الطريق. أعرف أن المبشر رجل أيضاً، لكن يا إلهي. عليه أن يصلّي ليلاً بدلاً من...».

«ثيلما، أعني ما الذي سمعته عن الوظيفة؟».

«أوه. ثمّة زوجان في باكهيد ـ خارج المدينة تماماً ـ قالت ريبا إنهما يحتاجان إلى معاون».

«معاون ماذا؟».

«لديهما مدبّرة منزل طبّاخة، لكنهما يحتاجان إلى خادمٍ آخر لمساعدة الزوج. إنه طبيب. شخصان لطيفان».

«تعنين أشبه بالممرضة؟»

«لا. مساعدة. لا أدري. ضمادات ويود على ما أعتقد. قالت

المرأة إن مكتبه يقع في المنزل. وبالتالي ستقيمين هناك. قالت إن المعاش ليس ممتازاً، لكن الفارق كلّه يكمن في أنك ستُعفَين من دفع الإيجار».

كانت المسيرة طويلة من محطة الباص، وكان حذاء «سي» الجديد الأبيض العالي الكعب يعيقها. أخذت قدماها تتقرّحان من دون جوربين، وكانت تحمل كيساً ممتلئاً بقليل مما تملكه وأملت أن تبدو محترمة في هذا الحي الجميل الهادئ. أوصلها عنوان الدكتور والسيدة سكوت إلى منزل كبير من طابقين يرتفع من فوق حديقة عشب متقن كعشب الكنيسة. وكانت ثمة لافتة تحمل اسماً، لم تتمكّن من لفظ جزء منه، تعرّف بربّ عملها المقبل. لم تدرِ «سي» هل عليها أن تقرع الباب الأمامي أم تفتش عن آخر في الخلف. واختارت الأخير. فتحت امرأة طويلة القامة وممتلئة الجسم باب المطبخ. مدّت يدها إلى كيس «سي» وابتسمت. «لا بد أنك من اتصلت ريبا بشأنها. ادخلي. اسمي سارة، سارة وليامز. ستقابلك زوجة الطبيب بعد قليل».

«شكراً، سيدتي. أيمكنني في البداية خلع هذا الحذاء؟».

ضحكت سارة ضحكةً مكتومة. «لن يسعد من اخترع الكعب العالي إلى أن يصيبنا بالشلل. دعيني أقدم إليك جعة الجذور الباردة».

أعجبت «سي» الحافية القدمين بالمطبخ ـ الأكبر بكثير، بكثير،

والأفضل تجهيزاً من ذلك الذي في مطعم بوبي، وهو أكثر نظافة أيضاً. وسألت، بعد بضع رشفات من الجعة، «أيمكنك إخباري بكل ما سيتوجّب عليّ القيام به؟».

«ستخبرك السيدة سكوت ببعضه، لكن الطبيب هو الوحيد الذي يعرف ذلك فعلاً».

عاودت «سي» ارتداء حذائها، بعد إنعاش نفسها في الحمام، وتبعت سارة إلى غرفة جلوس بدت لها أكثر جمالاً من قاعة سينما. هواء بارد، مفروشات مخملية بلون الإجاص، ضوء يرشح من الستائر الشديدة التطريز. هزّت السيدة سكوت برأسها، ويداها ترتاحان على وسادة صغيرة وقد شبكت كاحليها، ودعت «سي» إلى الجلوس بإشارة من سبابتها.

«سي، أليس كذلك؟» بدا صوتها أشبه بالموسيقا.

«نعم، سيدتي».

«هل أنتِ مولودة هنا؟ في أتلانتا؟».

«كلا سيدتي. أنا من بلدة صغيرة إلى الغرب من هنا تدعى لوتس».

«هل لكِ أولاد؟».

«كلا، سيدتي».

«هل أنتِ متزوجة؟».

«كلا، سيدتي».

«إلى أي كنيسة تنتسبين؟ هل من واحدة؟».

«هناك رعيّة الربّ في لوتس لكنني لا...».

«وهل يقفز أفرادها في الكنيسة».

«سيدتي؟».

«لا بأس. هل تخرّجت من الثانوية؟».

«كلا، سيدتي».

«أيمكنك القراءة؟».

«نعم، سيدتي».

«العد؟».

«آه، نعم. حتى أنني عملت مرّة على صندوق المحاسبة».

«عزيزتي، ليس هذا ما سألتك».

«يمكنني العد، سيدتي».

«قد لا تحتاجين إلى ذلك. وأنا لا أفهم حقّاً عمل زوجي، ولا يهمني أن أفهم. إنه أكثر من طبيب، إنه عالم ويقوم بتجارب مهمة جداً. تساعد اختراعاته الناس. وهو ليس بالدكتور فرانكنشتاين».

«دكتور من؟».

«لا تهتمي. قومي فقط بما يطلبه بالطريقة التي يريدها وستكونين بخير. اذهبي الآن. ستدلّك سارة إلى غرفتك».

نهضت السيدة سكوت. كان ثوبها نوعاً من الرداء الواسع، من الحرير الأبيض الذي يصل إلى الأرض وله كمّان واسعان. وبدت بكل ما فيها، بالنسبة إلى «سي»، أشبه بملكة تنتمي إلى الأفلام.

رأت «سي»، بعودتها إلى المطبخ، أن كيسها قد نُقل من مكانه وأخذت سارة تحثّها على أن تأكل شيئاً قبل أن تستقر. فتحت البراد واختارت صحناً من سلطة البطاطا وفخذي دجاج مقليين.

«أتريدينني أن أسخن هذا الدجاج؟»

«لا يا سيدتي، فأنا أحبه هكذا».

«أعرف أنني مسنّة، لكن أرجوك أن تناديني سارة».

«حسناً، إذا أردتني أن أفعل». فوجئت «سي» بجوعها. ولأنها تتناول في العادة وجبات خفيفة ومحاطة باللحم الأحمر الساخن وهو يتحمّص في مطبخ بوبي فهي لا تكترث في الغالب للطعام. وهي تتساءل الآن إن كان بإمكان قطعتين من الدجاج البدء في إسكات جوعها.

سألتها سارة: «كيف كان لقاؤك مع السيدة سكوت؟»

«جيّد»، قالت «سي»، «إنها لطيفة. لطيفة فعلاً».

«آها. ويسهل العمل معها أيضاً. لديها برنامج، وبعض الأمور التي تحبها أو تحتاجها، ولا تتغير. والدكتور بو ـ وهذا ما يدعوه به الجميع ـ نبيل جدّاً».

«الدكتور بو؟»

«اسمه الكامل بوريغار سكوت».

آه، فكّرت «سي»، هكذا يُلفظ الاسم على اللافتة التي على العشب. «هل لهما أولاد؟»

«فتاتان. تقيمان بعيداً. هل أخبرتْكِ شيئاً عن ماهية عملك هنا؟»

«لا. قالت إن الطبيب سيفعل ذلك. قالت إنه عالم بالإضافة إلى كونه طبيباً».

«هذا صحيح. فهي تمتلك المال كلّه، لكنه يخترع الأشياء. وقد حاول أن يحصل على براءات اختراع لكثير منها».

«عباءات اختراع؟» وقد امتلأ فم «سي» بسلطة البطاطا. «مثل العباءات التي يرتديها الناس؟»

«لا، يا فتاة. هي أشبه بتراخيص لصنع الأشياء. من الحكومة».

«أوه. هل هناك مزيد من الدجاج، رجاءً؟ إنه لذيذ حقاً».

«بالتأكيد يا عزيزتي»، وابتسمت سارة. «سأسمّنك في وقت قياسي إذا بقيت هنا ما يكفي من الوقت».

«هل سبق أن عمل مساعدون آخرون هنا؟ هل تمّ صرفهم؟» وقد بدا القلق على «سي».

«الحقيقة أن بعضهم قد استقال. أذكر أن واحداً فقط طُرد».

«ولماذا؟»

«لم أكتشف السبب قط. بدا لي وحسب أنه على ما يرام. شاب وأكثر ودّاً من معظمهم. أعرف أنهما تجادلا في أمر وقال الدكتور بو إنه لا يرغب في وجود «رفيق سفر» في بيته».

«ما هو رقيق السفر؟».

«رفيق وليس ’رقيق‘. لا فكرة لدي. أعتقد أنه شيء ضارٍ. فالدكتور بو كونفدرالي من العيار الثقيل. وجدّه بطلٌ مشهودٌ له قُتل في معركة شهيرة في الشمال. إليك بمنديل».

«شكراً». مسحت «سي» أصابعها. «آه، أشعر أنني أفضل حالاً بكثير الآن. أخبريني، منذ متى تعملين هنا؟».

«منذ كنت في الخامسة عشرة. دعيني أدلّك إلى غرفتك. إنها في الأسفل وليست جيدة جداً، لكنها جيّدة كأي مكان آخر للنوم، وفيها فراش صُنع لملكة».

كان «الأسفل» تحت الشرفة الأمامية ببضع أقدام فحسب، امتداداً سطحياً للمنزل أكثر من كونه قبواً حقيقياً. وكانت غرفة «سي» في آخر الردهة وغير بعيدة عن مكتب الطبيب، وكانت نظيفة وضيقة ومن دون نوافذ. وكان وراءها باب مقفل يؤدي إلى ما وصفته سارة بالملجأ من القنابل، وكان مجهزاً بالكامل. وضعت سارة كيس «سي» على الأرض. وأدى لباسان موحدان منشّيان بشكل جميل التحية من مشجبيهما على الجدار.

«انتظري حتى الغد لترتدي أحدهما»، قالت سارة وهي تسوّي الياقة النظيفة جداً التي صنعتها يداها.

«أوووه، هذا لطيف. انظري، لوح أمامي صغير للسرير». حدّقت «سي» في لوح السرير الأمامي، ثم لمسته وثغرها يفترّ عن ابتسامة. وأخذت تجرّ قدميها على البساط الصغير الموضوع قرب السرير. وبعد أن استرقت النظر من وراء ستارة قابلة للطي لرؤية كرسي الحمام والمغسلة ارتمت بقوة على السرير وهي تستمتع بسماكة الفراش. قهقهت عندما سحبت الملاءات لرؤية غطائها الحريري. فكّرت: «هاكِ يا لينور. ما الذي تنامين عليه في ذلك السرير الخرب الذي حصلت عليه؟» ولم تستطع، وهي تتذكّر الفرشة الرقيقة غير المستوية التي تنام عليها لينور، الامتناع عن الضحك بطربٍ جامح.

«رويدكِ يا فتاة. يفرحني أنكِ أحببته، لكن لا تضحكي بهذا الصوت المرتفع. فهو مدعاة للعبوس هنا».

«ولِمَ ذلك؟»

«سأخبرك لاحقاً».

«لا. الآن يا سارة، أرجوك».

«حسناً، أتذكرين الفتاتين اللتين أشرت إلى أنهما تقيمان بعيداً؟ إنهما في مأوى. فرأساهما كبيران جداً. أعتقد أنهم يطلقون على ذلك اسم التهاب الدماغ. من المحزن أن تكون واحدة منهما مصابةً به، فما بالك بالاثنتين؟ رحماك يا رب».

«آه، يا إلهي. يا للشقاء»، قالت «سي» وهي تفكّر: أعتقد أن هذا ما يدعوه إلى اختراع الأشياء، فهو يريد مساعدة الآخرين.

مثلت «سي» في اليوم التالي أمام ربّ عملها، ووجدته رسميّاً ولكن ودوداً. كان الدكتور بو رجلاً قصير القامة له شعر فضي غزير، وكان جالساً بتصلّب وراء مكتب واسع ومرتّب. تمحور أول سؤال طرحه عليها حول ما إذا كان لها أولاد أو هل سبق أن أقامت علاقة مع رجل. أبلغته «سي» أنها تزوجت لفترة لكنها لم تحمل، فبدا مسروراً لسماعه ذلك، وقال إن واجباتها تتعلّق أساساً بتنظيف الأدوات والمعدات ومتابعة جدول بأسماء المرضى وترتيب أوقات المواعيد وما إلى ذلك. كان يتولّى فواتيره الخاصة في مكتبه المنفصل عن غرفة الفحص/المختبر.

قال لها: «احضري إلى هنا عند تمام العاشرة صباحاً، وكوني على استعداد للعمل حتى وقت متأخر إذا استدعى الوضع ذلك. وكوني أيضاً على استعداد لواقع الطب: الدم أحياناً، والألم أحياناً. عليك أن تحافظي على ثباتك وهدوئك، دائماً. إن تمكّنت من القيام بذلك فستكونين على ما يرام. أيمكنك القيام بذلك؟»

«نعم، سيدي. أستطيع. بالتأكيد أستطيع».

واستطاعت. حتى أن إعجابها بالطبيب زاد أكثر عندما لاحظت العدد الكبير من الفقراء الذين يساعدهم، ولاسيما النساء والفتيات. وهم أكثر بكثير من الموسرين من الجوار أو من أتلانتا نفسها. وكان حريصاً للغاية مع مرضاه، ودقيقاً في احترام خصوصياتهم إلا عندما يدعو طبيباً آخر للانضمام إليه في معاينة أحد المرضى. وعندما لا ينفع تفانيه كله وتسوء حالة المريضة فإنه يرسلها إلى مستشفىً خيري

في المدينة. وقد وهب المال لتغطية نفقات الدفن لدى موت مريضة أو اثنتين بالرغم من عنايته. أحبّت «سي» عملها: المنزل الجميل، الطبيب اللطيف، والرواتب ـ التي لا يتم إغفالها أو الانتقاص منها كما كان يحدث أحياناً في مطعم بوبي. ولم ترَ سوءاً قط من السيدة سكوت. قالت سارة، التي تعتني بكل حاجاتها، إن ربة المنزل لا تغادره أبداً وإن لديها حاجة دائمة إلى صبغة الأفيون. كانت زوجة الطبيب تمضي معظم وقتها في رسم الأزهار بالألوان المائية أو مشاهدة البرامج التلفزيونية. كان ميلتون بيرل (Milton Berle) وذي هانيمونرز (The Honeymooners) هما المفضّلان لديها. حاولت أن تحبّ «آي لاف لوسي» (I Love Lucy)، لكن كرهها الكبير لريكي ريكاردو تغلّب على رغبتها في مشاهدته.

دخلت «سي» في أحد الأيام، وقد مضى عليها حوالى أسبوعين في العمل، مكتب الدكتور بو قبل نصف ساعة من وصوله. كانت تشعر دوماً بالرهبة من الرفوف المكتظة بالكتب. وها هي تتفحّص الكتب الطبية عن كثب وهي تمرّر إصبعها على بعض عناوينها: «الخروج من الظلمة» (Out of the Night)، وفكّرت أنها ولا بدّ رواية غامضة. ثم «انقضاء أجل العرق العظيم» (The Passing of the Great Race)، وإلى جانبه «الوراثة والعرق والمجتمع» (Heredity, Race and Society).

فكّرت في مدى تفاهة ولا جدوى تعليمها المدرسي، وتعهّدت لنفسها بأن تجد الوقت اللازم لتقرأ عن «تحسين النسل» وتفهمه.

كانت تعلم أن المكان هنا آمن، وقد أصبحت سارة عائلتها وصديقتها وكاتمة أسرارها. كانتا تتناولان كل الوجبات معاً دائماً وأحياناً كانتا تطبخان معاً أيضاً. وعندما يكون الجو حاراً جداً في المطبخ كانتا تتناولان الطعام في الفناء الخلفي تحت ظِلّة، وهما تتنشقان رائحة آخر أزهار الليلك وتراقبان السحليات الصغيرة وهي تعبر الممر بسرعة وخفّة.

«لندخل»، قالت سارة بعد ظهر يوم حار جداً في ذلك الأسبوع الأول. «هذه الذبابات لئيمة جدّاً اليوم. ثم إن لديّ بعض المَنّ الذي يحتاج إلى من يأكله قبل أن يطرى».

في المطبخ أخذت سارة ثلاث شمامات من سلة قطاف، وداعبت إحداها ببطء، ثم أخرى. تذمّرت: «إنهما ذكران».

رفعت «سي» الثالثة، ثم ربّتت قشرتها الليمونية الصفراء، وهي تدخل إصبعها في التضاريس الصغيرة حيث فجوة العِذْق، وضحكت: «أنثى. هذه أنثى».

«حسناً، هللويا»، وانضمت سارة إلى ضحك «سي» بضحكة خافتة. «الألذ دوماً».

ردّدت «سي» صداها: «ودوماً الأكثر عصيراً».

«لا يمكن التغلب على الفتاة في النكهة».

«ولا يمكن التغلّب عليها في السكّر».

وسحبت سارة من الدرج سكيناً طويلة حادّة، وبتشوّق شديد للذة الآتية شقّت «الفتاة» نصفين.

- ٥ -

تتلهّف النساء إلى التحدّث إلي عندما يتناهى إلى أسماعهن اسم عائلتي. ماني (المال)؟ يطلقن ضحكة خافتة ويطرحن دوماً الأسئلة نفسها: من أطلق علي هذا الاسم أو إن كان أحدهم قد فعل ذلك؛ أم أنني اختلقت الاسم لأضفي مزيداً من الأهمية على ذاتي، أم أنني مقامر أو لص أو أي نوع آخر من المخادعين الذين يتوجّب عليهن الاحتراس منه؟ وعندما أطلعهن على لقبي، الاسم الذي يطلقه عليّ أبناء بلدي، وهو «سمارت ماني» (المال الذكي)، يغربن في الضحك ويقلن: «ليس هناك شيء اسمه مال غبي، بل هناك قوم أغبياء وحسب. ألديك المزيد؟ يجب أن تحصلن على مالي». ولا نهاية بعد ذلك لأنس الحديث الذي يكفي لاستمرار الصداقة بعد وقت طويل على استنفادها لا لشيء إلا للتمكّن من إطلاق مزيدٍ من النكات البائخة: مرحباً يا «سمارت ماني»، أعطني بعضاً منه. ماني، تعال إلى هنا. لدي صفقة ستحبّها.

الحقيقة أنني، باستثناء ما حالفني به الحظ في لوتس وبعض فتيات الشوارع في كنتاكي، لم أحظَ بانتظام إلا بامرأتين. لقد أحببت الشيء الصغير القابل للكسر في كلّ منهما. وبغضّ النظر عن

شخصية الواحدة منهما أو ذكائها أو مظهرها، كان ثمة شيء لطيف في كلّ منهما. شيء خُلِق وأُفرِد للتمنّي كعظمة صدر الطائر. حرف V صغير، أرقّ من العظم ومعلّق في مكانه بالكاد، أمكنني، لو أردتُ، كسره بسبابتي، لكنني لم أفعل قط. أقصد أنني لو أردت لفعلت. تكفيني معرفة أنه هناك مختبئ منّي.

لكن المرأة الثالثة هي التي غيّرت كل شيء. فبرفقتها انتقلت عظمة الصدر الصغيرة V للإقامة في صدري واستقرّت فيه. كانت سبابتها هي التي تبقيني على توتّري. التقيتها في مصبغة لتنظيف الثياب. حدث ذلك في أواخر الخريف في تلك المدينة التي يحتضنها المحيط. من كان بإمكانه التكهّن بذلك؟ ناولتها، وأنا صاحٍ كنور الشمس، ثيابي العسكرية ولم أتمكن من أن أشيح بنظري عنها. لا بدّ أنني بدوت كمغفّل، لكنني لم أشعر بأنني كذلك. شعرت كأنني عدت إلى الديار. أخيراً. بعدما كنت هائماً على وجهي. غير مشرّد بالكامل، مع أنني أوشكت على ذلك. أشرب وأتسكّع في الحانات التي تصدح منها الموسيقا في شارع جاكسون، وأنام على أرائك ندمائي أو في العراء، وأراهن براتبي العسكري البالغ ثلاثة وأربعين دولاراً، في ألعاب النرد وفي صالات البلياردو. وعندما يتلاشى الراتب أقوم بأعمال قصيرة الأجل بانتظار وصول الشيك المقبل. كنت أعلم أنني بحاجة إلى المساعدة لكنها لم تكن متوفرة مطلقاً. وانتهى بي الأمر في الشوارع من دونها في غياب أوامر من الجيش أنفّذها أو أشتكي منها.

أذكر تماماً لما لم أشرب الخمر بتاتاً خلال أربعة أيام، ولما

احتجت إلى تنظيف ثيابي في المصبغة. كان ذلك بسبب ذلك الصباح عندما سرت عابراً الجسر. كان ثمة حشد يعجّ في المكان قرب سيّارة إسعاف. رأيت، لمّا دنوت أكثر، ذراعَي مسعف تحملان فتاةً صغيرة تتقيّأ ماء. كان الدم يسيل من أنفها. جمّدني الحزن كآلة دقّ الركائز. انقلبت معدتي وجعلني مجرّد التفكير في الويسكي أريد أن أتقيّأ. هرعت مبتعداً وأنا أشعر بالاهتزاز، ثم أمضيت بضع ليالٍ على مقاعد المتنزّه إلى أن أجبرتني الشرطة على المغادرة. ولما شاهدت، في اليوم الرابع، انعكاس صورتي على واجهة أحد المتاجر اعتقدت أنني شخص آخر. فتى ما متّسخ منظره مثير للشفقة، بدا شبيهاً بي في حلم استمرّ يراودني وأنا وحيد في ساحة المعركة. لم يكن في الحلم أحد. وكان الصمت مخيّماً. واصلت السير لكنني لم ألتقِ أحداً على الإطلاق، وعندها قررت أن أستجمع شتات نفسي، ولتذهب الأحلام إلى الجحيم. أردت أن يفتخر بي أبناء بلدتي، أن أصبح شيئاً غير ذلك السكير الممسوس وشبه المجنون. وهكذا لمّا شاهدت هذه المرأة في المصبغة كنت على أتمّ الجهوزيّة لها، ولبقيت معلّقاً بأهداب مريولها لولا تلك الرسالة. لم يكن، في ذهني ما ينافسها إلا الأحصنة، ووقع قدمَي رجل، وإيسيدرا ترتجف تحت ذراعي.

إنك مخطىء كثيراً إن كنت تعتقد أنني أبحث وحسب عن منزل مع طبق من الجنس فيه. لم أكن أبحث عن ذلك. ثمة أمر فيها صرعني وجعلني أريد أن أصبح إنساناً طيباً بما يكفي لأجلها. هل هذا معقّد جداً حتى يستغلق عليك فهمه؟ كتبت في وقت سابق أن

الرجل الذي تعرّض للضرب في القطار المتوجّه إلى شيكاغو سيثور ما إن يبلغ المنزل ويجلد زوجته التي حاولت أن تساعده. وهذا ليس صحيحاً. لم يراودني مثلُ تلك الفكرة. ما اعتقدته أنه فخور بها لكنه لم يشأ أن يُظهر للرجال الآخرين في القطار مدى فخره بها. لا أعتقد أنك تعرف كثيراً عن الحب.

أو عنّي.

- ٦ -

كانت الممثلات ألطف بكثير من الممثلين. فهن، على الأقل، كنّ يدْعونها باسمها ولم يكنّ يبالين إن لم تناسبهن أزياؤهن تماماً، أو إن كانت ملطّخة جرّاء عمليات تبرّج سابقة. كنّ ينادينها بالـ «فتاة»، كما في «أين الفتاة؟» «قولي، يا فتاة، أين مستحضرات «بوند» خاصتي للتجميل؟» وكنّ يغتظن عندما لم تكن شعورهن الحقيقية أو المستعارة تطاوعهن.

لم تشعر ليلي إلا باستياء خفيف لأن وظيفة الخياطة المسؤولة عن أزياء الممثلين شكّلت ترقيةً مالية من وظيفة عاملة تنظيف الملابس، وفتحت أمامها فرصة التباهي بمهارات الخياطة التي تعلّمتها من أمها: الحياكة، والكروشيه، والتطريز، والتطريز المعاكس، واليويو، وتركيب الأزرار ذات الساق، والحياكة العادية. ثم إن تعامل المخرج، راي ستون، معها تميّز بالتهذيب. وهو ينتج مسرحيتين وأحياناً ثلاثاً في الموسم في استوديو «سكايلايت» ويعطي في الوقت المتبقي دروساً في التمثيل. وهكذا يستمر المسرح، بالرغم من صغره وفقره، ناشطاً كقفير نحلٍ طول السنة. ويضج المكان، في الأوقات الفاصلة بين عمليات الإنتاج وانتهاء الصفوف، بالجدل الحاد، فيما يكسو العرق

جبين السيّد ستون وطلابه. فكّرت ليلي بأنهم يصبحون حينها أكثر نشاطاً مما يكونون وهم على المسرح. ولم تتمكن من منع نفسها من استراق السمع إلى مشاحناتهم، لكنها عجزت عن فهم الغضب الذي لا يتعلّق بمشهد ما أو بطريقة إلقاء بعض الجمل. واتضح لها، وقد أُقفل «سكايلايت» الآن واعتُقل السيد ستون وأضحت بلا عمل، أنه توجّب عليها الإصغاء عن كثب.

لا بد أن الأمر يتعلّق بالمسرحية. تلك التي تسبّبت بالمشكلة، وبوضع الجنود عند المدخل، وما أعقب ذلك من زيارة قام بها عنصران من الحكومة يرتديان قبعتي فيدورا. لم تكن المسرحية، من وجهة نظرها على هذا القدر من الجودة. الكثير من الكلام، والقليل جدّاً من الحركة، ولكنها لم تكن على هذه الدرجة من السوء التي تستدعي إيقافها. كما أنها بالتأكيد لم تكن أسوأ من تلك التي تمرّنوا عليها ولم يستطيعوا الحصول على ترخيص بتقديمها. ألّفها، إذا لم تخنها الذاكرة، شخص اسمه ألبرت مالتز بعنوان «قضيّة ماريسون».

كانت تتقاضى أجراً أقل في مصبغة «وانغز هيفنلي بالاس» حيث لا وجود للإكرامية من الممثلين. بيد أن العمل في النهار أفضل من السير في الظلام في رحلة الذهاب والعودة بين غرفتها الصغيرة المُستأجَرة والمسرح. وقفت ليلي في غرفة الكيّ وهي تستذكر إزعاجاً صغيراً تطوّر إلى استياء. فالجواب الذي حصلت عليه أخيراً من الوكيلة العقارية أشعلها غضباً. اقتصدت واهتمت بشؤونها الخاصة وتمكنّت من أن تضيف إلى ما تركه لها أهلها ما يكفي لمغادرة المنزل الذي تتشارك فيه السكنى مع آخرين، ومن تأمين

الدفعة الأولى لمنزل خاص بها. وضعت دائرة حول إعلان عن منزل بخمسة آلاف دولار. ستسعد بالانتقال من مثل هذا الحي الجميل، بالرغم من أنه يقع على مسافة بعيدة من مركز عملها في المصبغة. لم يزعجها ما واجهته من تحديق وهي تجول في الحي لأنها كانت تعلم مقدار أناقة هندامها ومثالية ترتيب شعرها. وبعد بضع جولات قامت بها ظهراً استشارت في النهاية الوكيلة العقارية. وبعدما شرحت مقصدها والمنزلين المعروضين للبيع اللذين عثرت عليهما، ابتسمت الوكيلة وقالت: «أنا آسفة حقّاً».

سألتها ليلي: «هل بيعا؟»

خفضت الوكيلة عينيها، ثم قرّرت ألاّ تكذب. «في الحقيقة لا، لكن ثمة قيود».

«علامَ؟»

تنهّدت الوكيلة. من الواضح أنها لا تريد إجراء هذا الحديث. رفعت نشّافة الحبر عن مكتبها وسحبت بعض الأوراق المشبكة بعضها ببعض، وقلبت إحدى الصفحات وأظهرت لليلي مقطعاً رُسم تحته خطّ. تتبعت ليلي بسبابتها الأسطر المطبوعة:

يُمنع منعاً باتاً بموجب هذا الصكّ استخدام أي جزء من العقار المذكور أو شغله من قبل أي يهودي أو أي شخص من العرق الأثيوبي أو المالاوي أو الآسيوي باستثناء الموظفين في الأعمال المنزلية.

«لديّ بيوت للإيجار وشقق في أماكن أخرى من المدينة. هل تودّين...».

«شكراً»، قالت ليلي، ورفعت رأسها وغادرت المكتب بأسرع مما سمح لها كبرياؤها به. بيد أنها، عندما هدأ غضبها وبعد قليلٍ من التفكير، عادت إلى الوكالة واستأجرت شقة مؤلفة من غرفة نوم واحدة في الطابق الثاني من مبنى مجاور لشارع جاكسون.

بالرغم من أن مستخدميها تميّزوا بالمراعاة أكثر بكثير من الممثلات في «استوديو سكايلايت»، إلا أنها أخذت تشعر بالاختناق بعد ستة أشهر من الكيّ والتنظيف على البخار لدى آل وانغ، حتى بعدما زادوا لها خمسة وسبعين سنتاً على معاشها، وبقيت ترغب في شراء ذلك المنزل أو آخر يشبهه. وسط ذلك الاضطراب المتزايد دخل رجل طويل القامة ومعه رزمة من الثياب العسكرية طالباً الخدمة التي تُوفّر في «اليوم نفسه». كان الزوجان وانغ، اللذان يتناولان الغداء في الغرفة الخلفية، قد أوكلا إليها أمر منصة الاستقبال. أبلغت الزبون أن خدمة «اليوم نفسه» لا تنطبق إلا إذا قُدّمت الطلبات قبل الظهر؛ إلا أن بإمكانه استلام أغراضه في اليوم التالي. وابتسمت وهي تتكلم. لم يقابل الابتسامة بمثلها، لكن عينيه كانتا هادئتين حالمتين ـ كأعين الذين يكسبون عيشهم من التحديق إلى أمواج المحيط ـ فأذعنت.

«حسناً، سأرى ما الذي يمكنني عمله. عُدْ في الخامسة والنصف».

وقد فعل، وانتظرها نصف ساعة على الرصيف، وهو ممسك بمشاجب الثياب من فوق كتفه، إلى أن خرجت. ثم عرض عليها أن يواكبها إلى منزلها.

«أتريد الصعود؟» سألته ليلي.

«سأقوم بأي شيء تطلبينه».

ضحكت.

* * *

ذاب أحدهما في الآخر، وأصبحا أشبه بزوجين في غضون أسبوع. لكن عندما قال بعد ذلك بأشهر إن عليه مغادرتها لأسباب عائلية، خفق قلب ليلي مرة واحدة فقط. وكان ذلك كل شيء.

كانت الحياة مع فرانك رائعة في البداية، وجاء انهيارها بمثابة إعياء أكثر من كونه انفجاراً وحيداً. أخذت تشعر بالامتعاض بدلاً من الفزع عندما تعود من العمل وتراه جالساً على الأريكة يحدّق إلى الأرض، مرتدياً أحد جوربيه وممسكاً الآخر بيده، ولا يحرّكه لا مناداته باسمه ولا الانحناء صوب وجهه. وهكذا تعلّمت ليلي أن تتركه وحاله وتندفع غاضبةً إلى المطبخ لتنظيف ما خلّفه من فوضى. أضحت الأوقات الجيّدة، كما في البداية حين كانت تشعر بسعادة كبيرة في الاستيقاظ وهو بجانبها وبطاقة تعريفه المعدنية تحت خدّها، ذكريات باتت تنزع أقل فأقل إلى النبش فيها. وكانت تأسف لفقدان النشوة لكنها كانت تظنّ أن فترات أوجها ستعود في لحظةٍ ما.

كانت آليات الحياة الصغيرة، في غضون ذلك، تحتاج إلى الاهتمام: فواتير غير مدفوعة، تسرّب متكرّر للغاز، فئران، تنسيلات في آخر زوج من جواربها، جيران عدائيون ويحبون الشجار، صنابير

ترشح، جهاز تدفئة أرعن، كلاب الشارع، والسعر الجنوني للهامبرغر. لم يكن فرانك يأخذ أياً من هذه الأمور المزعجة على محمل الجد، ولا يمكنها، صدقاً، لومه. كانت ليلي تعلم أن توقها إلى منزلها الخاص يقبع مدفوناً تحت كومة الشكاوى تلك، وكانت حانقة. لأنه لا يشاركها شيئاً من حماستها لتحقيق ذلك الهدف. وبدا في الواقع أنه لا يمتلك أي أهداف على الإطلاق. ولما سألته عن المستقبل، وعمّا يريد عمله، أجاب: «البقاء على قيد الحياة». تأوهت وقالت في سرّها: ما زال مسكوناً بالحرب. لذا كانت تغفر له سواء شعرت بالامتعاض أم بالفزع: مثل تلك المرّة التي ذهبا فيها في شهر شباط إلى اجتماع للكنيسة عُقد في ملعب لكرة القدم في إحدى المدارس الثانوية. رحبت الكنيسة بالجميع، وهي التي اشتهرت بالطاولة تلو الطاولة من الطعام المجاني اللذيذ أكثر من اشتهارها بالدعوة إلى اعتناق الدين. حضر الجميع حينها وليس فقط أبناء الرعيّة، وكان عدد غير المؤمنين، الذين احتشدوا عند المدخل واصطفوا للحصول على الطعام، يفوق عدد المؤمنين. وحُشرت في الحقائب والجيوب الجانبية المواد المطبوعة التي وزّعها شبان بدت على وجوههم أمارات الجدّية وكبار في السن باشّو الوجوه. ولمّا توقّف مطر الصباح وأخذت أشعة الشمس تتسلّل من بين الغيوم، استبدلت ليلي وفرانك معطفيهما بكنزتين وتمشّيا إلى الاستاد وهما مشبوكا الأيدي. رفعت ليلي رأسها أكثر بعض الشيء إلى أعلى وتمنّت لو أن فرانك قصّ شعره. كان الناس يرمقونه بما هو أكثر من نظرة عابرة، ربما لأنه على هذا القدر من طول القامة، أو هكذا أملت. وتمتعا، على أي

حال، بروح معنوية عالية طيلة بعد الظهر، فكانا يدردشان مع الناس ويساعدان الأولاد على ملء أطباقهم. فجأةً، وفي وسط أشعة الشمس الباردة والحبور الدافئ، اندفع فرانك هارباً. فقد وقفا عند إحدى الطاولات يفرغان دفعة ثانية من الدجاج المقلي في طبقيهما، حين مدّت فتاة صغيرة، في عينيها حَوَل، يدها من فوق الجانب المقابل من الطاولة للإمساك بقطعة من حلوى الكعك. انحنى فرانك من فوق الطاولة لدفع الطبق إلى مسافة أقرب منها. وعندما وجهت إليه ابتسامة شكر عريضة أسقط طعامه واندفع راكضاً عبر الحشد. ابتعد الناس عن طريقه ـ أولئك الذين اصطدم بهم وغيرهم ـ وقد تجهّم بعضهم فيما وقف آخرون وقد فغروا أفواههم. وضعت ليلي، الفزعة والمُحرجَة، صحنها الكرتوني على الطاولة، وحاولت جاهدةً الادّعاء بأنه غريب عنها، وسارت ببطء مرفوعة الرأس دون أن تنظر في عيني أحد، فتجاوزت المدرّج وغادرت من المخرج الذي سلكه فرانك.

عند عودتها إلى الشقة، شكرت اللّه إذ وجدتها خالية. كيف أمكنه التبدّل بمثل هذه السرعة؟ يضحك برهة ويُصاب بالذعر في الأخرى؟ هل يخفي في داخله عنفاً ما يمكن أن يُوجّه صوبها؟ كانت له طباعه بالطبع، لكنه لم يكن مشاكساً ولا عدوانياً قط. قرّبت ليلي ركبتيها إحداهما من الأخرى، واستندت إليهما بمرفقيها، وراحت تتأمّل في حيرتها وحيرته، والمستقبل الذي تريده وهل يمكنه أن يشاركها إياه. كان نور الفجر قد بدأ يعبر الستائر مسرعاً عندما عاد فرانك. قفز قلب ليلي عندما سمعت المفتاح يدور في القفل، لكنه كان هادئاً و«يتآكله الخجل»، حسب تعبيره.

«هل للأمر الذي أفزعك علاقة بفترة وجودك في كوريا؟» لم تسأله ليلى من قبل عن الحرب قط، وهو، من جهته، لم يثر الموضوع يوماً. قالت في سرّها: «جيّد، ومن الأفضل التحرّك قدماً».

ابتسم فرانك. «فترة وجودي؟»

«حسناً، تعرف ماذا أقصد».

«نعم، أعرف. لن يتكرّر الأمر. أعدك»، وضمّها فرانك بين ذراعيه.

عادت الأمور إلى طبيعتها. عمل فرانك في فترات بعد الظهر في مغسل للسيارات، فيما عملت هي عند «آل وانغ» في أيام العمل أسبوعيّاً فضلاً عن أيام السبت غير المتتالية. وأخذا يقلّلان أكثر فأكثر من اختلاطهما الاجتماعي، لكن ليلي لم تفتقد الأمر وكانا يكتفيان بمشاهدة فيلم ما إلى أن جلسا لمشاهدة فيلم "He Ran All The Way". أمضى فرانك بعدها جزءاً من الليل وهو يشدّ قبضته بصمت، ولم يعقب ذلك أي أفلام.

حطت ليلي مكاناً آخر نصب عينيها. وأصبحت شيئاً فشيئاً محط الأنظار بسبب مهاراتها في الخياطة. فقد خرّمت مرتين بالإبرة وشاحاً لعروس، وازدادت شهرتها بعدما طرّزت شرشف طاولة من الكتان بطلب من زبونة ثرية. وقرّرت، بعد تلقيها طلبات خاصة متعددة، الحصول على مكانها الخاص أيّاً يكن وفتح ورشة خياطة، وربما تصبح، في يوم من الأيام، مصمّمة أزياء. فهي في النهاية حصّلت خبرة مهنية في المسرح.

وفى فرانك بوعده ولم تحصل نوبات غضب علنية أخرى. حتى الآن. المرات الكثيرة التي عادت فيها إلى البيت لتجده متعطّلاً من جديد، مكتفياً بالجلوس على الأريكة ويحدّق في البساط، كانت تثير أعصابها. حاولت؛ حاولت حقّاً. لكن كان عليها القيام بكل الأعمال المنزلية، مهما صغرت: ثيابه المبعثرة على الأرض، الصحون التي لا تزال تحمل بقايا الطعام في المجلى، زجاجات الكاتشب التي لا تزال مفتوحة، شعر الذقن في البالوعة، المناشف المتشربة بالماء المتكومة على بلاط الحمام. وأمكن لليلي أن تستفيض أكثر فأكثر، وقد فعلت وازدادت الشكاوى لتتحول إلى جدالات من طرف واحد، ما دام يرفض المشاركة فيها.

«أين كنت؟».

«في الخارج».

«أين في الخارج؟».

«في الشارع».

في الحانة؟ عند الحلاّق؟ في قاعة البلياردو؟ فهو بالتأكيد لم يقبع جالساً في المتنزّه.

«فرانك، هل يسعك أن تنظّف زجاجات الحليب قبل وضعها على درج المدخل؟».

«عفواً. سأفعل ذلك الآن».

«فات الأوان كثيراً. سبق وفعلت ذلك بنفسي. فأنا، كما تعلم، لا يمكنني القيام بكل شيء».

«ما من أحد يمكنه ذلك».

«لكن يمكنك القيام بشيء، أليس كذلك؟»

«ليلي، أرجوك. سأفعل ما تريدينه».

«ما أريده؟ هذا البيت لكلينا».

تكثّفت غشاوة الاستياء التي لفّت ليلي، ووجد امتعاضها ما يبرّره في لامبالاته الواضحة، إضافةً إلى تركيبته المؤلفة من الحاجة وانعدام المسؤولية. وحياتهما في السرير، التي سبق أن كانت جيّدة تماماً بالنسبة إلى شابة لم تعرف غيره، أضحت عبئاً. وعندما طلب في ذلك اليوم المثلج أن يقترض كل ذلك المال للعناية بشقيقته المريضة في جورجيا، تصارع اشمئزاز ليلي مع الارتياح وخسر. التقطت صفيحتي التعريف المعدنيتين اللتين تركهما على مغسلة الحمام وخبأتهما في درج إلى جانب دفتر حسابها المصرفي. وها قد باتت الشقة كلها لها وحدها تنظّفها كما يجب، وترتب الأشياء في مكانها، وتستيقظ وهي تعلم أنها لم تُنقل أو تتحطّم إلى أجزاء. وأخذت العزلة التي كانت تشعر بها، قبل أن يواكبها فرانك من مصبغة وانغز إلى المنزل، تتلاشى، وحلّت محلها قشعريرة من الحرية، من الوحدة المُكتَسَبة، ومن اختيار الجدار الذي تريد اختراقه، وقد طُرح منها عبء تحمّل مسؤولية رجل منحرف. أمكنها، في غياب ما يسدّ الطريق عليها أو يلهيها، أن تجدّ وتطوّر خطة تتوافق مع طموحها وتنجح. ذلك ما علّمها إياه أهلها وما وعدتهم به: أصرّوا على أن تختار وعلى ألاّ تتأثّر

بأي شيء أبداً. ألاّ تسمح لأي إهانة أو شتيمة أن تلقي بها بعيداً عن الأرض التي تقف عليها. أو، كما أولع والدها في إساءة اقتباسه، «استجمعي قواك يا ابنتي. أسميناك ليليان فلورانس جونز على اسم والدتي، التي لم تبصر أي امرأة أكثر صلابةً منها النور. اعثري على موهبتك وسيري بها».

اقتربت ليلي بعد ظهر اليوم الذي غادر فيه فرانك من النافذة الأمامية فراعتها رؤية ندف الثلج الكثيفة ترش الشارع بالبودرة، وقررت القيام على الفور بشراء حاجياتها قبل أن يسوء الطقس. وما إن أصبحت في الخارج حتى وقع نظرها على محفظة نقود جلدية على الرصيف. فتحتها فوجدتها ملأى بالقطع النقدية ـ بمعظمها من الأرباع أو من فئة الخمسين سنتاً. تساءلت على الفور إن كان هناك من يراقبها. هل تحركت الستائر في الجهة المقابلة من الشارع قليلاً؟ وهل رآها ركاب العربة التي مرّت بها؟ أقفلت ليلي المحفظة ووضعتها على عمود الشرفة. وعندما عادت بالكيس المملوء بالطعام الضروري والمؤن وجدت أن المحفظة لا تزال في مكانها ولكنها مغطاة بزغب من الثلج. لم تنظر ليلي من حولها، والتقطتها بصورة عابرة وأسقطتها بين البقالة. ولاحقاً بدت النقود الباردة المتألقة صفقةً عادلة تماماً، وقد نثرتها على الجانب الذي ينام فيه فرانك على السرير. تلألأ المال الحقيقي في مساحة فرانك ماني الخالية. من يمكنه إساءة فهم علامة على هذا القدر من الوضوح؟ بالتأكيد ليس ليليان فلورانس جونز.

- ٧ -

لوتُس، جورجيا، أسوأ مكان في العالم، أشد سوءاً من أي ساحة معركة. فميدان الحرب يحتوي، على الأقل، على هدف وإثارة وجرأة وبعض الحظ في الربح إلى جانب حظوظ كثيرة في الخسارة. الموت أمر مؤكّد، ولكن الحياة على القدر نفسه من التأكيد. تكمن المشكلة في أنك لا تستطيع أن تعرف مسبقاً.

أما في لوتس فكنت تستطيع معرفة ذلك، إذ لا وجود للمستقبل فيها بل فترات طويلة وحسب من قتل الوقت. ما من هدف سوى مواصلة التنفس، وليس فيها ما يمكن الفوز به، وليس هناك، باستثناء الوفاة الهادئة لشخص آخر، ما تعيش لأجله أو ما يستحق البقاء على قيد الحياة لأجله. لولا صديقاي لكنت اختنقت قبل بلوغ الثانية عشرة. فهما، إلى جانب شقيقتي الصغيرة، من جعلا لامبالاة والديَّ وحقد جدِّي أمراً ثانوياً. لم يكن أحد في لوتس يعرف شيئاً أو يريد تعلّم شيء. إنها بالتأكيد لم تكن تشبه أي مكان تريد أن تكون فيه . ربما مئة شخص أو نحو ذلك يعيشون في حوالى خمسين بيتاً متداعياً مبعثراً. وما من شيء تقوم به سوى العمل الغبي في حقول لا تملكها، ولا تستطيع تملّكها، ولن تتملّكها إذا توفّر لك أي خيار آخر.

كانت عائلتي راضية، أو ربما فاقدة الأمل وحسب، بالعيش بتلك الطريقة. وأنا أقدّر الموقف. فبعدما تُجبر على الفرار من المدينة، تصبح أي مدينة أخرى توفر السلامة والنوم الهانىء طوال الليل وعدم الاستيقاظ على بندقية مرفوعة في وجهك أكثر من كافية. لكنها كانت أقل من كافية بكثير بالنسبة إلي. لم يسبق لك أبداً أن عشت هناك وبالتالي فإنك لا تدري كيف كانت الحياة هناك. فأي ولد ذي عقل سيفقده. هل كان علي أن أسعد بين فينة وأخرى بقليلٍ من الجنس السريع من دون حب؟ أو ربما ببعض الشيطنة العرضيّة أو المخطّط لها؟ وهل يمكن لعب الكلّة وصيد السمك والبيسبول أو صيد الأرانب أن تشكّل أسباباً للنهوض من السرير في الصباح؟ تعلم إنها ليست كذلك.

لم نطق أنا ومايك وستاف صبراً على الذهاب بعيداً، وبعيداً جداً.

أشكر اللّه على وجود الجيش.

لا أفتقد أي شيء في ذلك المكان إلا النجوم.

وحدها شقيقتي التي تواجه المشاكل يمكنها أن تجبرني على التردّد في المضي في ذلك الاتجاه.

لا تصورني وكأنني بطل متحمّس.

توجّب عليّ الذهاب لكنني كنت متوجّساً منه.

- ٨ -

لا غبار على كيّ جاكي. ومع أن مسحها الأرض ليس بتلك الجودة، لكن لينور أبقتها بسبب مهارتها التي لا تُضاهى في التعامل مع فتحات الثياب وأكمام القمصان والياقات والأربطة. كانت رؤية تينك اليدين الصغيرتين وهما ترفعان المكواة الثقيلة من دون جهد بهجةً، وكان من المفرح ملاحظة مدى السهولة التي تعالج بها لهب موقد الحطب. كم كانت حاذقة في استشعار مدى حرارة المعدن، الفارق بين حرارته الحارقة وحرارته المثالية. كانت في الثانية عشرة، وكانت تجمع في شخصيتها بين صخب لعب الطفل وبين تنفيذ الراشد للأعمال الرتيبة. كان بالإمكان رؤيتها في الطريق وهي تنفخ علكة «بابل غام» وتتلاعب في الوقت نفسه بكرة مربوطة إلى مضرب، أو تتعلّق، رأساً على عقب، على غصن شجرة سنديان، وربما تعمل بعد عشر دقائق من ذلك في تنظيف حراشف السمك أو نتف الدجاج كشخص محترف. كانت لينور تلوم نفسها على مسح جاكي الرديء. فرأس الممسحة كان مصنوعاً من مجموعة من الخرق وليس من الحبل المتشرّب للمماسح الأفضل. فكّرت أن تطلب منها

فرك الأرض وهي على ركبتيها لكنها فضّلت عدم مراقبة ذلك الجسم النحيل الصغير منحنياً يزحف على أربع. وكرّرت الطلب من سالم أن يشتري ممسحةً جديدة، وأن يركب متطفّلاً مع السيّد هايوود إلى جيفري ليشتري ما يحتاجانه من مؤن. أما عذره، الذي كان له الكثير غيره، فكان: «إنكِ تحسنين القيادة. اذهبي بنفسك».

تنهّدت لينور وحاولت ألا تقارن سالم بزوجها الأول، وفكّرت: ياه، ياه، كم كان رجلاً لطيفاً. لم يكن محبّاً وحيويّاً ومسيحيّاً جيداً فحسب، بل كان يكسب المال أيضاً. فقد كان يمتلك محطة للوقود تقع تماماً في المكان الذي تتفرّع فيه الطريق الرئيسية إلى طريق ريفية، وكان الموقع المثالي الذي يحتاج فيه المرء إلى تعبئة خزانه. رجل لطيف. ومن الفظاعة أن يطلقَ عليه النار ويرديه شخص أراد محطة وقوده أو حسده عليها. جاء في الملاحظة التي تُركت على صدره «اللعنة. اخرج الآن». حدث ذلك في أسوأ مراحل الكساد الاقتصادي الكبير وكان ذهن الشريف منشغلاً بأمور أكثر أهمية. ولم يكن التحقيق في حادثة إطلاق نار عادية في المقاطعة واحداً منها. أخذ الملاحظة وقال إنه سينظر فيها. وهو، إن كان قد فعل، فلم يفصح عمّا وجده. لحسن الحظ أن زوجها كان يمتلك مدخرات وتأميناً وملكية مهجورة تخص نسيبه في لوتس، بجورجيا. خافت أن يلاحقها قاتل زوجها، أيّاً يكن، فباعت المنزل وحمّلت السيارة بكل ما يمكنها حمله وانتقلت من هارتسفيلد، بألاباما، إلى لوتس. وقد تضاءل خوفها مع الوقت، لكن ليس بما يكفي لتعيش وحدها وهي مرتاحة. وبالتالي فقد تكفّل زواجها بأرمل من لوتس يُدعى سالم

ماني بحل تلك المشكلة لفترة على أي حال. كانت لينور تبحث عن شخص يساعدها في إصلاح المنزل فتحدّثت إلى راعي كنيسة رعية الرب الذي مدّها باسم أو اسمين، لكنه ألمح إلى أن سالم ماني يمتلك الوقت والمهارة، وكان ذلك صحيحاً، ولمّا كان سالم واحداً من قلة من الرجال غير المتزوجين في الجوار فقد بدا من الطبيعي أن يتآزرا. فقطعا الطريق كلها إلى ماونت هافن، وكانت لينور هي التي تقود، للحصول على رخصة زواج رفض الكاتب أن يصدرها لأنهما لم يكونا يملكان شهادة ولادة. أو هكذا تقول. لكن الرفض التعسّفي لم يردعهما، فقطعا العهود في رعية الرب.

ما إن بدأت لينور تشعر بالأمان والراحة بعيداً جداً من ألاباما حتى وصل أقارب لسالم ـ ذوو ثياب رثّة اضطروا للهروب من منزلهم ـ: ابنه لوثر وزوجته أيدا وابن آخر، فرانك، وحفيد، فرانك هو الآخر، ورضيعة نوّاحة.

كان أمراً لا يُطاق، فكل ما فعلته وسالم لإصلاح المنزل ذهب هباء. كان عليها أن تخطط مسبقاً لاستخدام المرحاض الخارجي؛ إذ لم تكن هناك خصوصية على الإطلاق. وكان عليها عند استيقاظها باكراً، جرياً على عادتها، لتناول فطورها المترف، القفز من فوق الأجساد النائمة أو المرضعة أو التي تشخر، والمنتشرة في أنحاء منزلها، فكيّفت نفسها وأخذت تتناول فطورها بعد أن يغادر الرجال وتأخذ أيدا الطفلة معها إلى الحقول. لكن صراخ الطفلة ليلاً كان أكثر ما يثير سخطها. واعتقدت لينور أنها ستفقد عقلها عندما سألتها أيدا إن كان بإمكانها الاهتمام بالطفلة لأنها لم تعد قادرة على العناية

بها في الحقل. وبالكاد أمكنها الرفض، لكنها وافقت أساساً لأنه كان من الواضح أن الشقيق ابن الأربع سنوات هو الأم الحقيقية للرضيعة.

شكّلت تلك الأعوام الثلاثة محنةً بالرغم من اعتراف العائلة المشردة بالجميل وقيامها بكل ما ترغب فيه لينور من دون شكوى. وسُمح لهم بالاحتفاظ بكل أجورهم لأنهم سيتمكّنون بذلك من ادّخار ما يكفي لاستئجار مكان خاص بهم ويغادرونها. فضيق المكان، والإزعاج، والعمل الإضافي، واللامبالاة المتزايدة للزوج، أدت كلها إلى تدمير ملجئها. ووجدت غمامة استيائها مما تتعرض له من استغلال كبير مكاناً تطوف من فوقه: حول رأسي الصبي والفتاة. فهما اللذان دفعا الثمن، مع أن لينور اعتقدت أنها مجرّد زوجة جدّ صارمة لا شريرة.

كانت الفتاة ميئوساً منها وتحتاج إلى العقاب كل دقيقة. وظروف ولادتها لم تبشّر بالخير. ربما هناك تعبير طبي لخَرَقها، ولذاكرتها القصيرة الأمد جداً إلى حد أنه حتى جلدها بالسوط لا يساعدها على تذكّر إقفال باب خم الدجاج ليلاً أو عدم إراقة الطعام كل يوم على ثيابها. «لديك فستانان. اثنان! أتتوقّعين مني أن أغسل واحداً منهما بعد كل وجبة طعام؟» وحده الحقد في عيني شقيقها منع لينور من صفعها. إنه دائم الحماية لها، ويهدّئها كما لو أنها قطته الأليفة.

انتقلت العائلة في النهاية إلى منزلها الخاص، وعمّ السلام والنظام. مرّت السنون، وكبر الأولاد وغادروا، ومرض الأهل وماتوا، وبارت المواسم، وهدمت العواصفُ المنازلَ والكنائسَ، لكن لوتس

صمدت، وكذلك لينور، إلى أن بدأت تشعر بالدوار في الكثير من الأحيان، وعندها أقنعت والدة جاكي بالسماح للفتاة بالقيام ببعض الأعمال عنها. كانت مترددة وحسب إزاء كلبة جاكي، حارسة الفتاة الدائمة، وكانت من نوع «دوبرمان» سوداء ـ بنية اللون، لا تفارق جاكي أبداً وتسند رأسها بين مخالبها خارج الباب تماماً، حتى عند نوم الفتاة أو لدى وجودها في أي بيت في الجوار. فكّرت لينور أن ذلك لا يهم ما دامت الكلبة قابعةً في الفناء أو عند المدخل. وهي تحتاج إلى من يقوم بالأعمال التي تتطلب وقوفاً دائماً. كما أنها تستطيع أن تستقي من جاكي بعض الأخبار عمّا يدور في القرية.

علمت أن ابن المدينة الذي هربت «سي» معه قد سرق سيارة لينور وهجر الفتاة بعد أقل من شهر، وأن الأخيرة تخجل من العودة إلى الديار. أمر طبيعي، فكّرت لينور. فقد صحّ كل ما خمّنته عن الفتاة. حتى إنها عجزت عن الزواج شرعاً. واضطرت لينور إلى الإصرار على بعض الإجراءات الشكلية، بعض الأمور المسجلة، وإلا لحصل الزوجان على مجرّد ترتيب رخو آخر للمساكنة. وأدى غياب الالتزامات بطرفٍ إلى سرقة الفورد وبالآخر إلى إنكار المسؤولية.

وصفت جاكي أيضاً وضع العائلتين اللتين فقدتا ابنين في كوريا. إحداهما آل «دورهم» أهل مايكل، الذي تذكّرته لينور على أنه شخص كريه وصديق قريب من فرانك. وقُتل فتى آخر اسمه إبراهام، ابن مايلين وهوارد ستون، ذلك الملقّب بـ «ستاف». وحده فرانك نجا من بين الثلاثة. وتضيف الأقاويل أنه لن يعود أبداً إلى لوتس. كان ردّ فعل آل دورهم وآل ستون على وفاة ابنيهما لائقاً إلا أن

المرء كاد يعتقد أنهم ينتظرون عودة جثماني قديسين إلى الديار. ألم يعلموا أو يتذكّروا كيف كان الفتية الثلاثة يسعون للحصول على دعوات إلى منزل مصفّفة الشعر تلك؟ حدّث عن العهر ولا حرج. حدّث عن العار. كانوا يدعونها السيدة (ك.). إن وصفها بالمغرورة لا يفيها حقها. وعندما ذهب القسيس ألسوب لزيارتها وتحذيرها من تسلية المراهقين المحليين رمت قميصه بكوب من القهوة الساخنة. وقد شجّعت بضع جدّات القسّيس على التحدّث معها، لكن الآباء لم يبالوا بما تقدمه السيدة (ك.) من خدمات، ولا حتى الأمهات. فعلى المراهقين أن يتعلّموا في مكانٍ ما، كما أن أرملة محلّية لا تضع عينها على أزواجهن تُعتَبر بركةً أكثر منها خطيئة. ثم إن بناتهن يصبحن في هذه الحال أكثر أماناً. والسيّدة (ك.) لم تكن تغري للزنى أو تطلب ثمناً. يبدو أنها كانت تمتع نفسها (والمراهقين) من وقت إلى آخر عندما تشتدّ شهوتها. ثم إنه لم يكن هناك من يصفّف الشعر أفضل منها. ولكن لينور لن تعبر الطريق لتقول لها «صباح الخير»، ناهيك بالجلوس في مطبخها الدنس.

أخبرت جاكي بهذا كلّه، ولم تجادلها الفتاة بالرغم من التماع عينيها أو تناقضها كما يفعل سالم على الدوام.

كانت امرأة تعيسة جدّاً. وبالرغم من أنها تزوجت لتفادي البقاء وحدها، فإن ازدراء الآخرين وضعها في عزلة، إنْ لم يبقها وحيدة بالكامل. ما كان يخفّف عنها امتلاكُها حساب توفير كبيراً نسبياً وما لديها من عقارات، واقتناؤها واحدة، أو في الواقع اثنتين، من السيارات القليلة في الجوار. شكّلت جاكي الدرجة التي تريدها من

الرفقة. فبالإضافة إلى كون الفتاة مستمعة جيّدة، فإنها كانت تستحقّ أكثر بكثير من ربع الدولار الذي كانت تدفعه لها لينور في اليوم.

ثمّ توقّف الأمر.

قال السيد هايوود إن هناك من رمى أمام عينيه بجروين من صندوق شاحنة. فرمل، والتقط الجرو الذي لم يُدقّ عنقه، وكان أنثى، وجلبه معه إلى لوتس للأولاد الذين يأتيهم بكتب الحكايات المصوّرة وبالحلوى. فرح كثير منهم بالكلبة واعتنوا بها، فيما عمد آخرون إلى مضايقتها. إلا أن جاكي عشقت الكلبة فأطعمتها ووفرت لها الحماية وعلّمتها بعض الحيل. ولا عجب في أنها تعلّقت على الفور بجاكي التي أحبتها أكثر ما يكون، وأطلقت عليها اسم بوبي.

لم تكن بوبي تأكل الدجاج في العادة، وتفضّل عليها طيور الحمام لأن عظامها ألذّ. ولم تكن تسعى وراء الطعام، بل تكتفي بأكل ما يُعطى لها أو ما تعثر عليه. وبالتالي فإن الفرخة التي كانت تنقّب بمنقارها عن الديدان حول درج مدخل بيت لينور شكّلت دعوةً واضحة. والعصا التي استخدمتها لينور لضرب بوبي وإبعادها عن الفرخة الميتة هي نفسها التي كانت تستخدمها للوقوف منتصبة.

سمعت جاكي العواء فتركت المكواة تطبع شكلها في غطاء الوسادة حارقةً إياه واندفعت إلى خارج المنزل لتنقذ بوبي. لم يعد أي منهما إلى منزل لينور.

باتت لينور، من دون من يساعدها أو في غياب الزوج المساند، أكثر وحدةً مما كانت عليه بعد وفاة زوجها الأول، ومما كانت عليه

قبل زواجها من سالم. وكان قد فات الأوان كثيراً على التودّد إلى نساء الجوار لكسب صداقتهن، وهي التي حرصت على أن يعرفن مستواهن ومستواها. أما التودّد إلى والدة جاكي فكان مذلّاً وعقيماً لأن الجواب كان: «آسفة». وبات عليها الآن الاكتفاء برفقة الشخص الذي تثمّنه أكثر من الجميع: نفسها. وربما كانت هذه الشراكة بين لينور ولينور هي التي تسببت بالجلطة الصغيرة التي عانت منها في ليلة خانقة في تموز. وجدها سالم جاثيةً بجانب السرير فركض إلى منزل هايوود الذي نقلها بالسيارة إلى المستشفى في ماونت هافن. وهناك، وبعد انتظار طويل ومحفوف بالخطر، تلقت في النهاية العلاج الذي منع حصول مزيدٍ من الضرر. ثقل نطقها لكن أمكنها التنقّل، ولو برويّة. كان سالم يلبّي حاجاتها الأساسية، لكن أراحته معرفة أنه لا يستطيع فهم أي كلمة تتلفّظ بها. أو هذا ما قاله.

كان دليلاً على طيبة نساء الجوار اللواتي يرتدنَ الكنيسة ويخفن اللّه أن يأتينها بأطباق الطعام، ويمسحن الأرضيات، ويغسلن بياضاتها، ولولا كبرياؤها وحساسيتهن لقمن بغسلها هي أيضاً. كنّ يعلمن أن المرأة التي يساعدنها تحتقرهنّ جميعاً، ولم يحتجن بالتالي إلى أن يجهرن بما يدركن أنه صحيح: «إن اللّه يجترح معجزاته بطرق غامضة».

- ٩ -

كوريا.

لا يسعك تصوّرها لأنك لم تكن فيها. لا تستطيع وصف المشهد الطبيعي الكئيب لأنك لم تَره أبداً. دعني أولاً أخبرك عن البرد. أعني البرد. فبرد كوريا يؤذي أكثر من الجليد، يلتصق بك كنوع من الغراء الذي لا يمكنك قشره.

المعركة مُرعبة، نعم، لكنها حيّة. الأوامر، اضطراب الأمعاء، تغطية الرفاق، القتل: أمور واضحة، ولا تحتاج إلى التفكير العميق. الانتظار هو الجزء الصعب. تمر الساعات تلو الساعات وأنت تقوم بكل ما يمكنك لتجاوز البرد والأيام الرتيبة. والأسوأ من ذلك كله مهمة الحراسة الفردية. كم مرة يمكنك انتزاع قفازيك للتأكد مما إذا اسودّت أظافرك أو للتحقّق من بندقيتك «البراونينغ»؟ لقد تدرّبت عيناك وأذناك على رؤية الحركة أو سماعها. أهذا صوت المنغوليين؟ إنهم أسوأ بكثير من الكوريين الشماليين. فالمنغوليون لا يستسلمون مطلقاً ولا يتوقفون. وعندما تعتقد أنهم قتلى يستديرون ويطلقون عليك النار بين فخذيك. حتى لو أخطأتَ وبدت عيونهم ميتة كعيون متعاطي المخدّرات، فالأفضل أن تهدر عليهم الذخيرة تحسّباً.

وها أنا، ساعة بعد ساعة، أستند إلى جدار مُرتَجل. وما من شيء لرؤيته سوى قرية هادئة بعيدة في الأسفل، تحاكي أسطحها المصنوعة من القش التلال العارية البعيدة، وإلى يساري تنتصب في الثلج كتلة متراصة من قصب الخيزران. إنه المكان الذي نرمي فيه نفاياتنا. بقيت متيقظاً قدر ما أمكنني، مستمعاً، مراقباً أي إشارة إلى الأعين السود المحمرّة أو القبعات المبطّنة. لم يكن يتحرّك شيء معظم الوقت. لكنني سمعت بعد ظهر أحد الأيام طقطقة خفيفة في أجمة الخيزران. كان ثمة شيء يتحرّك. عرفت أنه ليس العدو ـ لأنهم لا يأتون فرادى أبداً ـ فتصوّرت أنه أحد النمور التي شاع أنها تجوب التلال، مع أنّ أحداً لم يشاهد أيّاً منها. ثم رأيت القصب ينفرج، على مستوى منخفض عند الأرض. لعله كلب؟ لا، بل إنهما يدا طفلة تمتدان وتربّتان الأرض. أذكر أنني ابتسمت. ذكّرني ذلك بنا أنا و«سي» ونحن نحاول سرقة الدراق من الأرض تحت شجرة الآنسة روبنسون، نتسلّل ونزحف ونحافظ ما أمكننا على الهدوء حتى لا ترانا أو تلتقط الحزام. لم أحاول حتى أن أطرد الفتاة في تلك المرة الأولى، فأخذت تأتي كل يوم تقريباً، تشق طريقها عبر الخيزران للتنقيب في نفاياتنا. لم أرَ وجهها إلا مرة واحدة، واكتفيت في الغالب بمراقبة يدها وهي تتحرك بين الجذوع وتتلمّس النفايات. ورحّبت بكل مرة تأتي فيها كما لو أنني أشاهد طيراً يطعم صغاره أو دجاجة تكشط التراب بحثاً عن الدودة التي تعلم علم اليقين أنها موجودة فيه.

كانت يدها في بعض الأحيان تحقق نجاحاً فوريّاً وتنتش قطعةً

من النفايات في طرفة عين. وفي أحيان أخرى كانت أصابعها تكتفي بالتمدّد والتربيت والبحث عن شيء ما، أي شيء، تأكله. كانت أشبه بقنديل بحر بالغ الصغر، وكانت عسراء، مثلي. سبق أن راقبت حيوانات الراكون النيّقة جداً وهي تغير على سلال المهملات. أما هي فلم تكن نيّقة. فأي شيء ليس معدناً أو زجاجاً أو ورقاً كان طعاماً بالنسبة إليها. لم تكن تعتمد على عينيها للعثور على الغذاء بل على أناملها وحدها. نفايات حصص الطعام العسكرية، فضلات الطرود التي ترسلها الأمهات مع المحبة الملأى بفتات الكعك والبسكويت والفاكهة. وهناك برتقالة، أصبحت طرية الآن وقد سوّدتها العفونة، قرب أصابعها تماماً. تلمّست طريقها إليها. جاء الحارس البديل مني ورأى يديها وهزّ برأسه مبتسماً. نهضت وهو يقترب منها، وفي ما بدا أشبه بإيماءة متعجّلة، بل وحتى تلقائية، قالت شيئاً بالكورية، بدا كأنه «يام ـ يام».

ابتسمت ومدّت يدها إلى منفرج رجلَي الجندي ولمسته. فاجأه الأمر. يام ـ يام؟ وما إن أشحت بنظري عن يدها إلى وجهها لرؤية سنّيها المفقودتين، وشعرها الأسود المنسدل فوق عينيها المتلهفتين؛ أطلق عليها النار. وحدهما اليدان بقيتا في النفايات، تتمسّكان بكنزهما، البرتقالة العفنة المرقّطة.

كل مدني التقيته في تلك البلاد سيموت (وقد مات) دفاعاً عن أولاده. كان الأهل يرمون بأنفسهم أمام أولادهم من دون تردّد. كنت أعلم، مع ذلك، أنّ هناك بعض الفاسدين، الذين لم يكتفوا بالبيع الشائع للفتيات وشرعوا في تسويق الأطفال.

أعتقد، وأنا أعاود التفكير في الأمر الآن، أن الحارس قد شعر بما هو أكثر من الاشمئزاز. أعتقد أنه شعر بالإغراء ولهذا اضطر إلى القتل.

يام-يام.

- ١٠ -

كان «ذي جورجيان» يتباهى بفطوره المؤلف من لحم الخنزير البلدي المقدّد والصلصة الحمراء. وصل فرانك إلى المحطة باكراً لحجز مقعد في الدرجة الاقتصادية، وأعطى السيّدة المسؤولة عن التذاكر ورقة من فئة العشرين دولاراً وردّت له فكّة من ثلاثة بنسات. صعد في الثالثة والنصف من بعد الظهر إلى القطار وجلس في مقعد قابل للمد. وفي نصف الساعة التي سبقت انطلاق القطار من المحطة أطلق فرانك الصور التي تسكنه والدائمة الاستعداد للرقص أمام عينيه.

ها هو مايك بين ذراعيه من جديد يحشرج وينتفض فيما يصيح به فرانك: «ابقَ هنا يا رجل. هيّا. ابقَ معي». ثم يهمس؛ «أرجوك، أرجوك». ولما فتح مايك فمه ليتكلّم انحنى فرانك عليه فسمع صديقه يقول: «سمارت، سمارت. لا تخبر ماما». ولما استفسر ستاف لاحقاً عمّا قاله كذب فرانك. «قال: اقتل أولاد الزنى هؤلاء». وفي الوقت الذي وصل فيه المسعفون إلى المكان كان البول على سروال مايك قد تجمّد واضطر فرانك إلى أن يطرد عن جثة صديقه طيرين أسودَيْن وعدوانيين كقاذفتي قنابل. لقد غيّره ذلك. فالذي توفي بين

ذراعيه جعل طفولته فريدة. إنهم فتية من لوتس عرف بعضهم بعضاً، حتى قبل أن يتعلّموا استخدام المرحاض، وهربوا بالطريقة نفسها من تكساس وهم يكفرون برغبة الغرباء التي لا تُعقل في إيذاء الآخرين. لاحقوا، وهم أولاد، الأبقار الشاردة، وصنعوا لأنفسهم ملعباً للبيسبول في الأحراج، وتقاسموا سجائر «لاكي سترايك»، وتلمسوا طريقهم إلى ممارسة الجنس وضحكوا وهم يفعلون ذلك. استخدموا وهم مراهقون السيّدة (ك.)، مصفّفة الشعر، التي ساعدتهم، حسب مزاجها، في شحذ مهارتهم الجنسية. تجادلوا وتعاركوا وسخر بعضهم من بعض وأحبّ بعضهم بعضاً من دون أن يضطروا حتى إلى قول ذلك.

لم يتمتّع فرانك بالشجاعة من قبل. كان يقوم فقط بما يُطلب منه وبما هو ضروري، وكان يشعر بالتوتّر بعد كل عملية قتل. وها هو الآن متهوّر، مجنون، يطلق النار ويتفادى أشلاء الرجال المتطايرة. ولم يمكنه أن يسمع بوضوح التضرّع والنواح طلباً للمساعدة إلا بعدما أسقطت طائرة «أف-٥١» حمولتها على وكر الأعداء. وفي الصمت الذي أعقب الانفجار انبعثت الاستغاثات أشبه بصوت كمان جهير رخيص يصدر عن قفص مواشٍ تشم رائحة مستقبلها المضرّج بالدم. أصبح الآن، برحيل مايك، شجاعاً، مهما يعني ذلك. لم يكن هناك ما يكفي من الآسيويين أو الصينيين الموتى في العالم بحيث يشفي غلّه، ولم تعد رائحة الدم النحاسية تصيبه بالغثيان، بل راحت تفتح شهيته. وبعد ذلك بأسابيع، وعلى أثر القضاء على «رِدْ»، نزف الدم من ذراع ستاف المنسوفة. ساعد فرانك ستاف في العثور على مكان

الذراع على بعد عشرين قدماً وهي نصف مدفونة في الثلج. كان هذان الاثنان، ستاف ورِدْ، مقرّبين بشكل خاص. وقد أُسقِطت عبارة «نك» من لقب رد[1]، وفضّل، هو الذي يكره الشماليين أكثر مما يكرهونه، أن يرتبط بالفتية الجورجيين الثلاثة، وبخاصة بستاف. وها قد أصبحا أشلاء.

انتظر فرانك، غافلاً عن نيران المدفعية الآخذة في الانحسار، مغادرة المسعفين ووصول الوحدة المختصّة بالقتلى. لم يتبقَّ كثير من رِدْ ليتطلّب مساحة الحمالة كلّها لنفسه فتشاركت رفاته المكان مع آخر. لكن ستاف حصل على حمّالة كاملة لنفسه وتمدّد ممسكاً بذراعه المتّصلة تلك المبتورة ومات قبل أن يُدرك عقله أنه يحتضر.

بعد ذلك، وعلى مدى أشهر متواصلة، استمر فرانك يفكّر: «لكنني أعرفهم. أعرفهم ويعرفونني». لو سمع نكتة يعلم أن مايك سيحبّها فسيدير رأسه ليخبره إياها؛ يعقب ذلك جزء من الثانية من الارتباك قبل أن يدرك أنه لم يعد موجوداً. لن يسمع فرانك من جديد أبداً تلك الضحكة الصاخبة، أو يشاهده يسلّي الثكنة بكاملها بالنكات الفاسقة أو بتقليد نجوم السينما. كان يرى أحياناً، بعد وقت طويل على تسريحه، جانب وجه ستاف في سيارة متوقفة عند إشارة المرور إلى أن يُعلن له قلبه الذي يقفز من اللوعة أنه مخطئ. تضفي الذكريات الفجائية غير المنظّمة لمعة دامعة على عينيه. وعلى مدى أشهر استطاعت الكحول وحدها تبديد ذكرى صديقيه المفضّلين،

(١) «رد نك» لقب يُعطى للأميركي الشمالي الذي يتميّز بالرجعية السياسية.

الميتين، الحائمين اللذين لم يعد في استطاعته سماعهما أو التحدث إليهما أو الضحك معهما.

لكنه قبل ذلك، قبل وفاة ابني بلدته، شهد وفاةً أخرى؛ وفاة الطفلة المنقّبة في النفايات وهي تمسك بالبرتقالة وتبتسم ثم تقول «يام-يام» قبل أن يطيح الحارس رأسها.

أدرك فرانك فجأةً، وهو جالس في القطار إلى أتلانتا، أن تلك الذكريات، مهما تبلغ قوتها، لم تعد تسحقه أو ترمي به في يأسٍ مُقعِد. أمكنه استذكار كل تفصيل وكل شجن من دون الحاجة إلى الكحول لحفظ توازنه. هل كان ذلك ثمرة الرصانة؟

قُبَيْلَ الفجر تماماً أبطأ القطار خارج شاتانوغا ثم توقّف من دون سبب ظاهر، وسرعان ما اتّضح أن هناك ما يحتاج إلى إصلاح وقد يستغرق ذلك ساعة وربما أكثر. تذمّر بعض ركاب الدرجة الاقتصادية، فيما استغل آخرون الظرف وترجّلوا من القطار لتمرين أرجلهم خلافاً لتعليمات السائق. استفاق ركاب عربات المنامة وطلبوا القهوة، وطلب الموجودون في عربات الدرجة الأولى الطعام ومزيداً من الشراب. كان الجزء من السكة حيث توقّف القطار يمرّ بجوار مزرعة للفستق، إلا أنه كان بالإمكان رؤية لافتة مخزن للأعلاف يقع بعدها بمئتين أو ثلاثمئة ذراع. تمشّى فرانك، المضطرب ولكن ليس سريع الانفعال، صوب متجر العلف المقفل في تلك الساعة والذي يوجد بجانبه متجر صغير مفتوح يبيع صودا وخبز «واندر» وتبغاً وغير ذلك من المنتجات التي يرغبها المحليون. كانت أغنية بينغ كروسبي «لا

تسيّجني» (Don’t Fence Me In) تصدح من جهاز راديو ضعيف الإشارة. كانت ثمة امرأة تجلس وراء المنضدة في كرسي للمقعدين لكنها كانت بسرعة العصفور الطنّان، فانسابت إلى الثلاجة وتناولت منها عبوة مشروب «دكتور بيبر» الغازي طلبها فرانك ودفع ثمنها وغمزها فقابلته بنظرة ساخطة وهو يخرج ليشربها. أخذت الشمس الفتيّة في التوهّج، ولم تكن هناك من الأمكنة الظليلة أو التي توفّر الفيء، ما عدا مخزن العلف والمتجر ومنزلاً بشعاً متهالكاً في الجانب المقابل من الطريق، وقد رُكنت أمامه كاديلاك جديدة طلاها ضوء الشمس باللون الذهبي. عبر فرانك الطريق ليمتّع ناظريه بمنظر السيارة الفاتنة. أضواؤها الخلفية كناية عن شرائح تشبه زعانف كلب البحر، وزجاجها الأمامي يمتد واسعاً من فوق غطاء المحرّك. سمع فرانك، مع اقترابه أكثر، أصوات نساء يشتمن ويغمغمن وراء المنزل، فسار في اتجاه الزعيق متوقّعاً أن يظهر أمامه ذكرٌ معتدٍ، لكنه وجد امرأتين تتعاركان، وتتدحرجان على الأرض، تلكمان، وترفسان الهواء، وقد مرّغت كل منهما الأخرى في التراب، وكان شعرهما وثيابهما في حالة من الفوضى. ما فاجأ فرانك كان الرجل الواقف بقربهما وهو ينظّف أسنانه بسواك ويتفرّج. استدار الرجل عند اقتراب فرانك. كان رجلاً ضخم الجثة ذا عينين خاليتين من أي بريق وضجرتين.

قال الرجل دون أن يسحب السواك من فمه: ما الذي تنظر إليه؟.

جمد فرانك، وتوجّه الرجل الضخم إليه مباشرةً ودفعه في صدره مرتين. أسقط فرانك «دكتور بيبر» من يده وعاجل الرجل، الذي كان يفتقر إلى الرشاقة على غرار الرجال الضخام فعلاً، بلكمة قصيرة

مستقيمة فخرّ أرضاً على الفور. قفز فرانك على الجسم الخائر وشرع في لكمه على وجهه وهو متشوّق لدفع ذلك السواك في حلقه. كانت الإثارة المتولّدة من كل لكمة مألوفة بشكل رائع. لم يتمكن فرانك من التوقّف، ولم يشأ ذلك، واستمر في اللكم بالرغم من أن الرجل الضخم كان قد فقد وعيه توقفت المرأتان عن خدش إحداهما الأخرى وأخذتا تشدّان فرانك من ياقته.

صرختا: «توقّف! إنك تقتله! قُمْ عنه يا ابن العاهرة!»

توقّف فرانك والتفت لينظر إلى منقذتي الرجل الضخم. انحنت إحداهما لهدهدة رأس الرجل. فيما أخذت الأخرى تمسح الدم عن أنفها وتنادي الرجل الضخم باسمه. «صوني. صوني. آه، يا حبيبي»، ثم خرّت على ركبتيها وراحت تحاول إنعاش قوّادها. كانت بلوزتها ممزقة من جهة ظهرها، وكانت صفراء فاقعة.

وقف فرانك وغادر بسرعة وهو يدلّك مفاصل أصابعه، نصف راكض ونصف قافز، عائداً إلى القطار. تجاهله عمال الصيانة أو لم يروه. بعد أن ولج الباب المفضي إلى الدرجة الاقتصادية لاحظ حمّالٌ يديه الملطختين بالدم وثيابه المغبّرة لكنه لم يقل شيئاً. لحسن الحظ أن دورة المياه كانت قريبة من المدخل فأمكنه التقاط أنفاسه وتنظيف نفسه قبل أن يسلك الممر. ما إن جلس فرانك حتى تساءل عن الإثارة والفرح الجامح اللذين مدّه العراك بهما. كان هذا مختلفاً عن الضراوة التي واكبت عمليات القتل في كوريا، فتلك الفورات

كانت شرسة ولكن طائشة ومجهولة. أما هذا العنف فكان ذا نشوة فريدة. قال في سرّه: هذا جيد. فقد يحتاج تلك الإثارة للمطالبة بشقيقته.

- ١١ -

عيناها فاقدتا البريق، منتظرتان، دائمتا الانتظار. ليست مريضة، أو يائسة، بل مُعلّقة. «سي». إيسيدرا. شقيقتي، وقد باتت الآن عائلتي الوحيدة. وعليك حين تدوّن ذلك أن تعرف التالي: لقد شكّلت ظلاً لمعظم حياتي، وحضوراً يسجّل غيابه الخاص، أو ربما غيابي. من أنا من دونها؟ تلك الفتاة السيئة التغذية بعينيها الحزينتين المنتظرتين؟ كم ارتجفتْ حين اختبأنا من الرفوش. غطيّت وجهها، عينيها، آملاً أنها لم ترَ القدم البارزة من القبر.

جاء في الرسالة «إنها ستموت». لقد جررت مايك إلى الملجأ ومنعت عنه الطائرين، لكنه مع ذلك مات. بقيت بجواره، تحدّثت إليه ساعة ولكنه مع ذلك مات. أوقفت أخيراً الدم الذي كان ينزّ من المكان الذي توجّب أن تكون ذراع مايك فيه. لقد وجدتها على بعد حوالى عشرين قدماً وأعطيته إياها لعلّ بإمكانهم إعادة خياطتها في مكانها، ومع ذلك مات. لا أريد المزيد من الناس الذين أعجز عن إنقاذهم. لا أريد أن أشهد موت المزيد من الناس المقرّبين إلي. لا أريد.

لكن ليس شقيقتي. مستحيل.

كانت أول شخص أتولى مسؤوليته. كانت صورتي السرية لنفسي تعيش في عمق أعماقها. أناي القوية الصالحة كانت مرتبطة بذكرى تلك الأحصنة وبدفن أحد الغرباء. أحرسها، أجد طريقاً عبر العشب المرتفع وإلى خارج ذلك المكان وأنا غير خائف من أي شيء: لا الأفاعي ولا كبار السن المتوحشين. أتساءل إن كان نجاحي في ذلك قد شكّل البذرة المدفونة لكل ما تبقّى. شعرت بالبطولة في قلبي الفتي الصغير وكنت أعلم أنني سأقدم على القتل لو أنهم عثروا علينا أو مسّوها.

- ١٢ -

سار فرانك نازلاً عبر شارع أوبورن المقابل للمحطة في وولنات. مصفّفة شعر، طباخة طعام سريع، امرأة تدعى ثيلما... حصل في النهاية على نوع السيارة واسم سائق الأجرة غير المرخّص الذي قد ينقله إلى مكان عمل «سي» في الضاحية. لكنه، وقد وصل متأخراً بسبب ما حصل من تأخير بالقرب من شاتانوغا، أمضى يومه يتنقّل جيئةً وذهاباً في شارع أوبورن جامعاً المعلومات. وقد تأخر الوقت جداً الآن، ولن يجد سائق التاكسي في موقعه إلا في وقت مبكر من الصباح التالي. قرّر فرانك الحصول على ما يأكله، فسار في المكان قليلاً ثم أخذ يفتش عن مكان يبيت الليل فيه.

تمشّى في الجوار حتى الغسق، وفي الطريق إلى فندق رويال هاجمه شبان أشقياء هواة.

أحب أتلانتا، فوقعُ الحياة اليومية فيها إنساني، على عكس شيكاغو. هناك وقت في هذه المدينة فيما يبدو. وقت للف سيجار فحسب، وقت لتفحّص الخضار بعين قاطع الألماس. ووقت يتجمّع فيه كبار السن خارج واجهة أحد المتاجر لا يفعلون شيئاً إلا مراقبة

أحلامهم وهي تمرّ بهم: سيارات المجرمين الفارهة، واهتزاز أرداف النساء. وهناك وقت أيضاً ليُرشد واحدهم الآخر، وليصلّوا، بعضهم من أجل بعض، ولتوبيخ الأطفال في مقاعد مئات الكنائس. كان هذا الحنوّ الممتع هو ما جعله يتخلّى عن حذره. راودته ذكريات كثيرة محزنة، لكن غابت عنه، على مدى يومين، الأشباح والكوابيس، وكان الآن يستميت على فنجان من القهوة السادة في الصباحات وليس على ما يمدّه به الويسكي من هزّة الاستيقاظ. هكذا تمشّى في الشوارع في الليلة التي سبقت توفّر سيارة الأجرة غير الشرعية وهو يتفرّج على المشاهد في طريقه إلى الفندق. ولو أنه حافظ على حذره بدلاً من استغراقه في أحلام اليقظة لتعرّف إلى رائحة تلك السترة والبنزين، وإلى السير المتسلّل السريع إضافة إلى لهاث العصابة ـ رائحة أولاد فزعين يعتمدون على شجاعة المجموعة، لا المجموعة العسكرية بل مجموعة الملعب، وذلك عند مدخل أحد الأزقة.

لكن غاب ذلك كلّه عنه وأمسك اثنان من المتسلّلين الخمسة بذراعيه من الخلف. استخدم فرانك قدمه ليسحق بها قدم أحدهم واستدار، في المجال الذي تركه سقوط الفتى المنتحب، وكسر بمرفقه فكّ آخر. وعندها قام واحد من الثلاثة المتبقين بضربه بأنبوب على رأسه. سقط فرانك وشعر في غشاوة الألم بمن يفتّش جسمه وأعقب ذلك وقع أقدام هاربة وهي تعرج. زحف صوب الشارع وجلس في الظلمة مستنداً إلى أحد الجدران إلى أن عاد وضوح الرؤية إلى عينيه.

«أتحتاج إلى مساعدة؟» وانتصب أمامه ظل رجل محاط بإطار من ضوء الشارع.

«ماذا؟ أوه».

«هاك»، ومدّ الرجل يده لمساعدة فرانك على النهوض.

ربّت فرانك جيوبه وهو لا يزال يترنّح، وشتم. «اللعنة». لقد سرقوا محفظته. فرك مؤخرة رأسه متجهّماً.

«أتريدني أن أطلب الشرطة، أم لا؟»

«اللعنة، لا. أقصد لا، لكن شكراً».

«حسناً، خُذْ هذه»، ودسّ الرجل ورقتين من فئة الدولار في جيب سترة فرانك.

«آه، شكراً. لكنني لا أحتاج أي...».

«انسَ الأمر، يا أخي، وابقَ حيث الضوء».

تذكّر فرانك لاحقاً، وهو جالس في مطعم يفتح طوال الليل، جديلة شعر السامري الصالح وقد التقطت نور الشارع. فقد الأمل في ليلة نوم جيّدة في الفندق. كانت أعصابه مشدودة وتنتفض فاختار البقاء أطول وقت ممكن يلعب بأكواب القهوة وبطبق البيض. لم تكن الأمور على ما يرام. لو أنه امتلك سيارة فقط، لكن ليلي رفضت الإصغاء إليه. كانت لديها مخططات أخرى. تحوّلت أفكاره، وهو يخِز البيض، إلى ما يمكن أن تقوم به ليلي، وأخذ يفكّر. بدت مرتاحة لمغادرته. وهو كذلك، والحق يقال. وبات مقتنعاً الآن أن تعلّقه بها كان من قبيل العلاج، كابتلاع الأسبرين. وسواء عرفت ليلي ذلك

أم لا، فإنها عمليّاً بدّلت موقع اضطرابه وغضبه وخزيه، وأقنعته هذه الانتقالات بأن الحطام العاطفي لم يعد موجوداً. والواقع أنّ هذا الحطام كان يتحيّن اللحظة المناسبة.

غادر فرانك المطعم وهو يشعر بالتعب والانزعاج، وهام بلا هدف في الشوارع وتوقّف فجأةً لدى سماعه زعيق بوق. كان الصوت قادماً من أسفل درج قصير ينتهي عند باب نصف مفتوح. أكّدت هتافات الإعجاب زعيق البوق، وإذا كان هناك ما يلائم مزاجه فهو ذلك الصوت. ولج فرانك إلى الداخل. كان يفضّل الـ «بيبوب»[1] على «البلوز» وأغاني الحب التي تُشعر بالسعادة. لقد أدرك الموسيقيون باكراً كالجميع بعد هيروشيما أن قنبلة ترومان بدّلت كل شيء ولا يمكن إلا للـ «سكات»[2] والـ «بيبوب» شرح ذلك. كانت تجلس في داخل الغرفة الصغيرة والعابقة بالدخان دزينة أو قرابة ذلك من الأشخاص المنفعلين في مواجهة ثلاثي: البوق والبيانو والطبول. استمرّت المقطوعة بلا توقّف ولم يحّرك أحد ساكناً باستثناء بضع إيماءات رؤوس. حام الدخان في المكان؛ وتكّت الدقائق عابرة. تبلّل وجه عازف البيانو بالعرق وكذلك وجه عازف البوق. أما وجه عازف الطبول فحافظ على جفافه. من الواضح أن المعزوفة لا نهاية موسيقية لها؛ وأن العزف لن يتوقف إلا بعد أن يُصاب أحد

---

(١) bebop: أسلوب من أساليب الجاز السريع الإيقاع، ويعتمد على المهارة في اللعب على الآلات وعلى الارتجال.

(٢) Scat: نوع من الارتجال الصوتي الشائع في الجاز يتلفّظ فيه المؤدي بكلام غير مفهوم.

العازفين بالإرهاق، وينزع عازف البوق آلته عن فمه ويداعب عازف البيانو المفاتيح قبل تأديته دوراً نهائياً. إلا أنه، عند حصول ذلك، لم يتوقّف عازف الطبول بالرغم من توقف عازف البيانو والبوق، وواصل العزف. استدار زميلاه الموسيقيان بعد برهة للنظر إليه وتعرّفا إلى ما لا بدّ أنهما قد شاهداه من قبل. فقد عازف الطبول السيطرة، وتولّى الإيقاع الأمور. مرّت دقائق طويلة وقف بعدها عازف البيانو وأنزل عازف البوق آلته من يده، ورفعا معاً عازف الطبول عن مقعده وأبعداه فيما عصواه تتحرّكان في إيقاع معقّد وصامت معاً. صفّق الحضور احتراماً وتعاطفاً، وأعقب التصفيقَ صعودُ امرأة في فستان أزرق فاتح وعازف بيانو آخر إلى المسرح. أنشدت المرأة بضع مقاطع من «سكايلارك» (Skylark)، ثم دخلت في «سكات» مرتجل أسعد الجميع.

لم يغادر فرانك المكان إلا بعدما فرغ من الناس. كانت الساعة الرابعة فجراً، قبل ساعتين من موعد سيارة أجرة السائق غير الشرعي. جلس عند المنعطف منتظراً وقد خفّ الألم في رأسه، لكن السيارة لم تأتِ قط.

لا سيارة، لا سيارة أجرة، لا أصدقاء، لا معلومات، لا خطة. إن العثور على وسيلة نقل من المدينة إلى الضاحية في هذه الأنحاء أصعب من المواجهة في ميدان المعركة. كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف صباحاً عندما صعد حافلةً مكتظّةً بعمّال النهار الصامتين ومدبرات المنازل والخدم وصبية جزّ العشب الكبار. وما إن أصبحوا خارج الجزء التجاري من المدينة حتى أخذوا ينزلون من

الحافلة الواحد تلو الآخر أشبه بالغطاسين المتردّدين في الغوص في مياه زرقاء مغرية ترتفع عالياً مخبّئةً التلوّث القابع تحتها. سيبحثون في العمق عن الحطام والنفايات ويعيدون تموين الشعب المرجانية وهم يتفادون الأسماك المفترسة التي تسبح عبر السعف المخرّمة. سيقومون بالتنظيف والطبخ والخدمة والرعاية وغسل الملابس وقلع الأعشاب الضارة والجزّ.

دهمت أفكار العنف فرانك بالتعاقب مع أفكار الحذر وهو يتابع بحثه عن لافتة الشارع الذي يقصده. لم يكن يمتلك أي فكرة عما سيفعله ما إن يبلغ المكان الذي فيه «سي». ربما سيتولّى الإيقاع الأمر على غرار ما حصل مع عازف الطبول، وربما تتم مواكبته هو الآخر بعيداً وهو يضرب يائساً، سجينَ كفاحه. وبافتراض أنّ المنزل كان خالياً، فسيتوجب عليه الدخول عنوةً. كلا. لا يسعه ترك الأمور تخرج إلى هذا الحد عن السيطرة بحيث يعرّض «سي» للخطر. الافتراض؛ إلا أنه لا جدوى من الافتراض في أرض غريبة. في الوقت الذي شاهد فيه لافتة الشارع الصحيحة، كان أوان شد حبل الباص الذي يدعو السائق للتوقف قد فات. أخذ يهدّىء من روعه وهو يجتاز عائداً عدة أبنية ليبلغ لافتة الطبيب المعلّقة في حديقة منزل بوريغار سكوت. كانت ثمة شجرة قرّانيا مزهرة بأزهارها البيضاء كالثلج ذات القلب القرمزي عند الدرج. تردّد في قرع الباب الأمامي أم الخلفي. ألهمه حذره بقرع الباب الخلفي.

«أين هي؟»

لم تسأله المرأة التي فتحت باب المدخل عمّن يسأل، وقالت: «في الأسفل».

« هل أنت سارة؟»

«نعم، أنا. بهدوء قدر الإمكان»، وأومأت برأسها صوب الدرج المؤدي إلى مكتب الطبيب وغرفة «سي».

حين بلغ فرانك أسفل الدرج رأى عبر الباب المفتوح رجلاً صغير القامة أبيض الشعر جالساً إلى مكتبٍ كبير. رفع الرجل نظره.

«ماذا؟ من أنت؟» اتسعت حدقتا الطبيب ثم ضاقتا وقد أشعرهما انتهاك الغريب بالإهانة. «اخرج من هنا! سارة! سارة؟»

اقترب فرانك أكثر من المكتب.

«لا يوجد هنا ما يستوجب السرقة! سارة!» ومدّ الطبيب يده إلى الهاتف. «سأتصل بالشرطة. الآن!»

أصبحت سبابته في صفر القرص عندما أطاح فرانك الهاتف من يده. حين أدرك الطبيب نوعية التهديد تماماً فتح درج مكتبه وأخرج منه مسدّساً.

عيار ٩ ملم، فكّر فرانك. نظيف وخفيف. لكن اليد التي تمسك به ترتجف.

رفع الطبيب المسدس وصوّبه إلى ما بدا له في غمرة هلعه فتحتي منخر متوسّعتين وشفتين مزبدتين وعينين محمّرتين لشخص متوحّش، لكنه رأى في وجه الرجل بدلاً من ذلك الهدوء، بل السكينة التي يجب ألا ينخدع بها.

ضغط على الزناد.

جاءت تكّة حجرة الرصاص الفارغة خفيفة وهادرة معاً. أسقط الطبيب المسدس ودار حول المكتب وتجاوز الدخيل وصعد الدرج. «سارة!» صاح. «اتصلي بالشرطة، يا امرأة! هل سمحت له بالدخول؟»

ركض الدكتور «بو» عبر الممشى إلى حيث وُضع هاتف آخر على طاولة صغيرة. وقفت سارة بجانبه ويدها تضغط بقوة على السماعة. كان مقصدها واضحاً.

سار فرانك في غضون ذلك إلى الغرفة التي ترقد فيها شقيقته جامدة وصغيرة بزيّها الأبيض. أهي نائمة؟ جسّ نبضها. أهو ضعيف أم غائب كلياً؟ انحنى ليستمع إلى تنفّسها. كان ملمسها بارداً، ولم يكن فيها دفء لحظة الموت. لقد عرف فرانك الموت، وهذا لم يكن هو، حتى الآن. دار بنظره سريعاً حول الغرفة ولاحظ زوج حذاءٍ أبيض، ومبولة، ومحفظةَ نقود «سي». فتّش في المحفظة ودسّ ورقة العشرين دولاراً التي وجدها فيها في جيبه، ثم ركع بجانب سرير «سي»، ودسّ ذراعيه تحت كتفيها وركبتيها وحملها برفق وصعد بها الدرج.

اشتبكت سارة والطبيب في تحديقة يستحيل تفسير لغزها. ولمّا مرّ فرانك من حولهما بحمله الجامد رمقه الدكتور «بو» بنظرة من الراحة المشوبة بالغضب. لا سرقة. لا عنف. لا أذى. بل خطف وحسب لموظفة يمكنه استبدال أخرى بها بسهولة ولو أنه لم يجرؤ،

نظراً إلى معرفته بزوجته، على استبدال سارة، ليس بعد على أي حال.

قال لها: «لا تبالغي في الرهان على ورقتك».

«لا، يا سيدي»، أجابت سارة لكن يدها بقيت تضغط على سماعة الهاتف إلى أن نزل الطبيب الدرج إلى مكتبه.

ما إن تلمّس فرانك طريقه وخرج من الباب الأمامي وبلغ الرصيف حتى استدار لإلقاء نظرة على المنزل وشاهد سارة تقف في الباب تظلّلها أزهار القرّانيا. لوّحت بيدها. وداعاً له ولـ «سي» وربما لعملها.

وقفت سارة برهةً تراقبهما يختفيان عبر الرصيف، وهمست «الحمد للّه»، وهي تفكّر بأن الأوان كان ليفوت لو مرّ يوم آخر بعد. لامت نفسها بالقدر الذي لامت به الدكتور «بو». كانت تعلم أنه يحقن مرضاه ويجعلهم يتجرّعون أدوية صنعها بنفسه، وأنه يجري من وقت إلى آخر عمليات إجهاض لسيدات المجتمع. ولم يضايقها أي من ذلك أو يروّعها. ما لم تعرفه هو متى أخذ يهتم إلى هذا الحد بالأرحام بشكل عام، صانعاً أدوات تمكنّه من الرؤية أبعد فأبعد داخلها، ومُدخلاً التحسينات على المنظار الطبي. لكن أصابها الخوف الشديد عندما لاحظت فقدان «سي» وزنها وتعبها وما يدوم عليه طمثها من وقت طويل، فكتبت إلى القريب الوحيد الذي تمتلك «سي» عنوانه. مرّت الأيام، ولم تعرف سارة هل بلغت رسالتها المذعورة عنوانها وأخذت تستجمع شجاعتها لتبلغ الطبيب بأن عليه

استدعاء سيارة إسعاف عندما قرع شقيقها باب المطبخ. الحمد للّه. تماماً بحسب قول القوم الكبار في السن: ليس عندما تدعوه؛ ليس عندما تريده؛ بل عندما تحتاجه وفي الوقت المناسب تماماً. وفكّرت في أنه إذا ماتت الفتاة فلن يحدث ذلك وهي في رعايتها في منزل الطبيب، بل بين ذراعي شقيقها.

تناثرت بعض أزهار القرّانيا التي أوهنها الحرّ فيما سارة توصد الباب.

أوقف فرانك «سي» على قدميها، ولف ذراعها اليمنى حول عنقه، رأسها على كتفه وحركة قدميها لا تشبه الخطو حتى ـ كانت خفيفة كريشة. وصل فرانك إلى موقف الباص وانتظر ما بدا أنه انتظار أبدي. مرّر الوقت وهو يحصي الأشجار المثمرة في الأفنية كلها تقريباً: الإجاص والكرز والتفاح والتين.

كان هناك قليل من الركاب في الحافلة العائدة إلى المدينة، وارتاح لإبعاده إلى الخلف حيث أتاح المقعد الطويل المجال لكليهما، وحمى الركاب من منظر رجل يحمل، ويجرّ، امرأةً بدا من الواضح أنها مضروبة وسكرى.

استلزم بعض الوقت، إثر مغادرتهما الباص، لتحديد مكان سيارة الأجرة غير الشرعية المركونة بعيداً من صف سيارات الأجرة المرخّصة المنتظرة، ومزيداً من الوقت لإقناع السائق بالقبول باحتمال إفساد مقعده الخلفي.

«أهي ميتة؟».

«قُدْ».

«إنني أقود، يا أخي، لكنني أريد أن أعرف هل سأذهب إلى السجن أم لا».

«قلت قُدْ».

«إلى أين؟»

«لوتس. عشرون ميلاً على الطريق ٥٤».

«سيكلفك ذلك».

«لا تقلق في هذا الشأن»، لكن فرانك كان قلقاً. بدت «سي» كأنها تذرف قطرات الحياة الأخيرة. امتزج خوفه بالرضا العميق الذي جلبته له عملية الإنقاذ، ليس لأنها نجحت وحسب بل لأنها جرت بهذا القدر الملحوظ من السلم. كان بالإمكان أن يحدث الأمر بشكل بسيط، «أيمكنني إعادة شقيقتي إلى الديار؟» لكن الطبيب شعر بالتهديد ما إن دخل من الباب. ومع ذلك فإن عدم اضطراره إلى ضرب خصمه للحصول على ما يريده كان أمراً عُلوياً بطريقة ما، أو حذقاً نوعاً ما.

«إنها لا تبدو لي على ما يرام»، قال السائق.

«انظر إلى أين تتجه، يا رجل. فالطريق أمامك وليست في مرآتك».

«إنني أفعل، أليس كذلك؟ تعرف أن الحدود القصوى للسرعة هي خمسة وخمسون. لا أريد أن أواجه مشكلة مع الشرطة».

«إن لم تقفل فمك ستصبح الشرطة أفضل ما يحلّ بك»، جاء صوت فرانك صارماً، لكنه شحذ أذنيه لسماع زعيق صفارة الإنذار.

«أهي تنزف على مقعدي؟ يجب أن تدفع لي مبلغاً إضافياً إذا أفسدتْ مقعدي الخلفي».

«قُلْ كلمة أخرى، كلمة واحدة فقط، ولن تحصل على أي قرش لعين».

شغّل السائق الراديو، وأخذ لويد برايس يغنّي، وملؤه الفرح والسعادة، «لاودي ميس كلاودي» (Lawdy Miss Clawdy).

أضحت «سي»، الفاقدة الوعي، والتي تئن من وقت إلى آخر، والتي أصبح ملمس بشرتها ساخناً، حملاً ثقيلاً، لذا وجد فرانك صعوبةً في التفتيش في جيوبه عن الأجرة. لم يكد باب التاكسي يقفل حتى تطاير الغبار والحصى من خلف الإطارات مع انطلاق السائق بأسرع ما يمكن مبتعداً عن لوتس وعن ابنها المجنون الخطير.

انسابت أصابع قدمي «سي» على الحصى فيما جُرّ أعلى قدميها عبر الطريق الضيقة المؤدية إلى منزل الآنسة إثيل فوردهام. التقط فرانك شقيقته من جديد وحملها بإحكام بين ذراعيه وصعد درج الشرفة. كانت مجموعة من الأولاد تقف في الطريق التي تمر أمام الفناء وهم يراقبون فتاة تلاعب كرة مربوطة بالمضرب كالمحترفين، وحوّلوا أنظارهم إلى الرجل وحمله. نهض كلب أسود جميل ممدّد بجانب الفتاة وبدا أكثر اهتماماً بالمشهد من الأولاد. فيما كان الأولاد يحدّقون إلى الرجل والمرأة عند شرفة الآنسة إثيل كانت

أفواههم فاغرة. أشار صبي إلى الدم الذي يلطّخ الزي الأبيض وقهقه. لطمته الفتاة على رأسه بالمضرب قائلةً «أقفلْ فمك!» لقد عرفت الرجل الذي صنع منذ وقتٍ طويل طوقاً لجروها.

كانت ثمة سلة قطاف من اللوبياء الخضراء بجانب أحد الكراسي، وعلى طاولة صغيرة طاسة وسكين للتقشير. سمع فرانك عبر باب الشبك غناء. «أقرب إليك، يا رب...».

«آنسة إثيل؟ هل أنت في الداخل؟» صاح فرانك. «هذا أنا، سمارت ماني. آنسة إثيل؟».

توقّف الغناء وأمعنت إثيل فوردهام النظر عبر باب الشبك، ليس إليه بل إلى الشكل النحيل بين ذراعيه. قطّبت حاجبيها. «إيسيدرا؟ آه، يا فتاة».

لم يتمكّن فرانك من الشرح ولم يحاول ذلك. ساعد الآنسة إثيل في وضع «سي» على السرير، وطلبت إليه بعد ذلك الانتظار خارجاً. رفعت زيّ «سي» وباعدت ما بين رجليها.

«الرحمة»، همست. «إنها تحترق»، ثم قالت لشقيقها المتلكّىء: «اذهب وقَطّع تلك اللوبياء، يا سمارت ماني. لديّ عمل أقوم به».

- ١٣ -

كان يوماً مشرقاً جداً، أكثر إشراقاً مما يتذكّر. والشمس، التي امتصت زرقة السماء، كانت تتسكّع هناك في جنة بيضاء وهي تتهدّد لوتس وتعذّب مشهدها الطبيعي، ولكنها تفشل، تفشل، تفشل دوماً في إسكاتها: فأولادها لا يزالون يضحكون ويركضون ويلعبون صائحين، والنسوة يغنين في أفنيتهنّ وهن يعلّقن بالملاقط الملاءات البيض على حبال الغسيل؛ وينضم «السوبرانو» من وقت إلى آخر إلى «الألتو» المجاور أو «التينور» العابر وحسب. «خذني إلى المياه. خذني إلى المياه. خذني إلى المياه. لأتعمّد». لم يسلك فرانك تلك الطريق الترابية منذ سنة ١٩٤٩، ولم يطأ الألواح الخشبية التي تغطي الأمكنة التي جرفها المطر. لم تكن هناكَ أرصفة، ولكن في كل الأفنية الأمامية والخلفية كانت هناك أزهار تحمي الخضر من الأمراض والضواري ـ الأذريون[١]، والقرّة[٢]، والأضاليا. قرمزية، أرجوانية، زهرية، وبالأزرق الصيني. أكانت هذه الأشجار دائماً بهذا اللون المغرق في القتامة؟ بذلت الشمس ما في وسعها لتنهك

(١) Marigold

(٢) Nasturtiums

السلام الذي قد ينعم به المرء في ظلّ هذه الأشجار القديمة الفارهة؛ استنفدت نفسها كي تفسِدَ أي لذةٍ قد تستقيها من كونها بين أولئك الذين لا يسعون إلى أذيّتك أو تدميرك. ولكنها مهما حاولتْ لن تتمكّن من سفع الفراشات الصفراء وإبعادها عن شُجَيْرات الورد القرمزية ولا من خنق تغريد العصافير. ولم تثنِ عقوبة حرّها السيّد فوللر وابن شقيقه من الجلوس في صندوق شاحنة: الفتى يعزف على الهارمونيكا والرجل على بانجو ذي ستة أوتار. كانت قدما ابن الشقيق الحافيتين تتأرجحان؛ فيما كانت جزمة العم اليسرى تنقر الإيقاع. غمره اللون والصمت والموسيقا.

كان يعلم أن هذا الشعور بالأمان والرضا مبالغ فيه، لكن التمتع به كان حقيقياً. أقنع نفسه أنه في مكانٍ مجاورٍ ما تتحمّص أضلاع خنزير على مشواة الفناء وأن داخل المنزل هناك سلطة البطاطا والكرنب مع البازلاء الحلوة التي أينعت قبل أوانها، وأن ثمة قالب كعك يبرد فوق براد الثلج. وكان متأكداً بأن ثمة امرأة تعتمر قبعة رجالية من القش تصطاد السمك على ضفة الجدول الذي يُدعى «ريتشد». ولا بد أنها تجلس، طلباً للظل والراحة، تحت شجرة غار تمدّ أغصانها كالأذرع.

شاهد، عندما بلغ حقول القطن الواقعة بعد لوتس، فدادين من أزهار وردية اللون تفترش الأرض تحت الشمس الحاقدة. ستتحول في أيام قليلة إلى اللون الأحمر وتتساقط على الأرض لتسمح بخروج كرات القطن الصغيرة. وسيحتاج المزارع إلى المساعدة في العناية الأخيرة بالمحصول، وسيقف فرانك في الصف حينها، ومرة أخرى

حين يحين موعد القطاف. وقطاف القطن، على غرار كل الأشغال الشاقة، ينهك الجسم لكنه يحرّر الذهن بأحلام الانتقام وصور اللذة غير المشروعة، وحتى خطط الهروب الطموحة. كانت تتقاطع مع هذه الأفكار الكبيرة أفكار أخرى صغيرة. نوع آخر من الدواء للطفل؟ ما العمل بقدم عَمّ تورّمت كثيراً فلم يعد يستطيع انتعال الحذاء؟ هل يكتفي المؤَجّر هذه المرة بنصف الإيجار؟

جل ما استطاع فرانك التفكير فيه، وهو ينتظر أن يتم استخدامه، هو هل «سي» تتحسّن أم تسوء حالها أكثر. لقد فعل ربّ عملها هناك في أتلانتا أمراً ما لجسمها ـ وهو لا يدري ما هو ـ وها هي تحارب حمّى ترفض أن تزول. إنه يعلم أن جذر القصب الهندي الذي تعتمد عليه الآنسة إثيل لا يعطي مفعوله. لكن هذا كل ما يعلمه لأن جميع نساء الجوار حلن بينه وبين زيارة غرفة المريضة. ولولا الفتاة جاكي لما علم شيئاً على الإطلاق. علم منها أنهن يعتقدن أن ذكورته ستفاقم وضعها، وأخبرته أن النسوة يتعاقبن على رعاية «سي» ولكل منهن وصفتها المغايرة لعلاجها. الأمر الوحيد الذي اتفقن عليه كان عدم وجوده بجانب سريرها.

هذا يفسّر لماذا لم ترد الآنسة إثيل وجوده حتى على شرفتها.

قالت له: «امضِ إلى مكان ما، وابقَ غائباً إلى أن أرسل في طلبك».

بدت المرأة لفرانك هلعة حقاً، فقال لها: «لا تدعيها تموت. أتسمعينني؟»

«اخرج»، ولوّحت له بالابتعاد. «إنك لا تساعد، يا سيّد سمارت ماني، ليس مع هذه العقلية الشريرة. قلت لك، ابتعد»،

وهكذا شغل نفسه في تنظيف وإصلاح منزل أهله الذي بقي شاغراً منذ وفاة والده. فقد امتلك، بالقليل الذي تبقى له من مال حذائه وما فضل من رواتب «سي»، ما يكفي لإعادة استئجاره لبضعة أشهر. نقّب في ثقب على مقربة من موقد الطبخ فعثر على علبة الكبريت، وعلى سنّين صغيرتين جداً من أسنان «سي» اللبنية، إلى جانب «كلله» الرابحة: الزرقاء الفاتحة، والأبنوسية، وتلك المفضّلة لديه بلون قوس القزح. وكانت ساعة «البولوفا» لا تزال هناك. بلا تاج وبلا عقارب. هكذا كان الوقت في لوتس، مجرّداً وعرضة للتأويل من أي كان.

ما إن بدأت الأزهار تتساقط حتى توجّه فرانك عبر صفوف القطن إلى السقيفة التي يدعوها مدير المزرعة مكتبه. في الماضي كان يكره هذا المكان بما يحدثه من عواصف غبار لدى حراثة الأرض، وبحروب حشرات التربس(*) فيه، وبالحرّ المُعمي. كان فمه يجفّ سخطاً عندما كان يقوم بشتى الأعمال الضئيلة وهو صبي، فيما أهله بعيدون جداً في الحقول المنتجة. وقد تسبب بما أمكنه من الفوضى ليحملهم على طرده، وقد فعلوا. لم يهمّه توبيخ والده له لأنه و«سي» باتا حرّين في اختراع الوسائل لشغل ذلك الوقت الأبدي عندما كان العالم لا يزال نضراً بالنسبة إليهما.

(*) التربس: حشرة صغيرة من فصيلة مفصليات الأرجل، ترافق عادةً العواصف الغبارية، لذا يقال لها «حشرات العواصف».

إن ماتت لأن طبيباً متعجرفاً، شريراً، قد شقّها، فستبهت ذكريات الحرب بجانب ما سيفعله به، حتى ولو استغرقه الأمر بقية حياته، حتى ولو قضى رصيد أيامه في السجن. وبالرغم من أنه هزم خصمه من دون سفك دماء، فقد انضم، وهو يتخيّل موت شقيقته، إلى القطّافين الآخرين الذين يخططون للانتقام الحلو تحت الشمس.

حلت أواخر حزيران/يونيو عندما أرسلت الآنسة إثيل جاكي تخبره أن في وسعه المرور بها، وتحسّنت «سي» في تموز/يوليو بما يكفي للانتقال إلى منزل أهلهما.

أصبحت «سي» مختلفة. شهران وهي محاطة بنساء الريف اللواتي أدى حبهن إلى تبديلها. لقد تعاطت النسوة مع المرض كما لو أنه إهانة، أو صلف غير مشروع، معتدٍ يحتاج إلى الضرب بالسوط. لم يهدرن وقتهن أو وقت المريضة بالتعاطف، وواجهن دموع الألم بازدراء مذعن.

هناك النزف في البداية: «باعدي ما بين ركبتيك. سيؤلمك ذلك. اسكتي. اسكتي، قلت».

ثم الالتهاب: «اشربي هذا. وإذا تقيّأتِ سيتوجّب عليك شرب المزيد، فلا تفعلي».

ومن ثم العلاج: «توقفي عن ذلك. الحريق يعني الشفاء. اهدئي».

لاحقاً، بعدما زالت الحمّى وغُسل رحمها لإخراج ما حُشر فيه، وصفت «سي» لهن القليل الذي تعرفه عما حصل لها. لم يسألها

أيٍّ منهن ذلك. وما إن عرفن أنها عملت لدى طبيب حتى كان قلبُ العيون وكزّ الأسنان كافيين لإظهار ازدرائهن الواضح. ولم يؤدّ أيٌّ ممّا تذكّرته «سي» إلى تبديل آرائهن في الصناعة الطبية: لا مدى الشعور الممتع الذي شعرت به لدى استيقاظها من الإبرة التي حقنها بها الدكتور «بو» لتنويمها؛ ولا مدى حماسته لقيمة الفحوصات، ولا اعتقادها أن ما أعقب ذلك من دم وألم ناتج عن مشكلة في الطمث.

«يتعرّف الرجال الفريسة عندما يرونها».

«لستِ بغلة تجرّ عربة طبيب شرير».

«هل أنت مرحاض أم امرأة؟»

«من قال لك إنك سقط متاع؟»

«كيف لي أن أعرف ما الذي كان ينويه؟» صاحت «سي» دفاعاً عن نفسها.

«لا يعلن البؤس عن نفسه مسبقاً، ولهذا عليك البقاء مستيقظة، وإلا فإنه سيأتيك من بابك».

«لكن...»

«لكن لا شيء. إنك صالحة بما يكفي لرعاية يسوع. هذا كل ما عليكِ معرفته».

لمّا أخذت تتعافى بدّلت النسوة أساليبهن وتوقفن عن التوبيخ. كنّ الآن يجلبن تطريزهن وحياكتهن، وأخذن، أخيراً، يستخدمن

منزل إثيل فوردهام مركزاً للخياطة. تجاهلن أولئك الذين يفضلون البياضات الجديدة الناعمة، ومارسن ما تعلّمنه من أمهاتهن في تلك الحقبة التي سمّاها الأغنياء الكساد الاقتصادي الكبير وسمّينها الحياة. لم يعد لدى «سي» المحاطة بمجيئهن وذهابهن، والمستمعة إلى حديثهن وغنائهن ومتّبعة تعليماتهن، ما تفعله سوى أن تعطيهن انتباهاً لم يسبق لها أن أعطتهن إياه من قبل. لم يكنّ يشبهن في شيء لينور التي ساقت سالم بشدّة، والتي لا تفعل شيئاً على الإطلاق الآن بعد إصابتها بجلطة خفيفة. على الرغم من أنّ كلّ ممرضة من ممرضاتها كانت تختلف اختلافاً ملحوظاً عن الأخرى بالمظهر واللباس وطريقة الحديث وذوقها الغذائي والطبي، إلا أن التشابه بينهن كان صارخاً. لم يكن هناك فائض في حدائقهن لأنهن كنّ يتقاسمن كل شيء. وكانت منازلهن خالية من القمامة والنفايات لأنهن كنّ يستخدمن كل شيء. كنّ يتحمّلن مسؤولية حياتهن وحياة كل شخص يحتاج إليهن، أيّاً يكن. كان غياب الفطرة السليمة يثير غضبهن لكنه لم يكن يفاجئهن. أكثر ما لا قدرة لهن على التسامح معه هو الخمول، لأنه كان أمراً غير إنساني. فعلى المرء أن يكون منشغلاً، سواء في الحقل أو في المنزل أو في فنائه الخلفي الخاص. والنوم لم يكن من أجل الأحلام؛ بل لاستجماع القوة لليوم التالي. وكان حديثهن يترافق مع المهمات: الكَيّ، التقشير، الفصل، الفرز، الخياطة، الترقيع، الغسيل أو الإرضاع. لم يكن في وسعك معرفة أعمارهن، لكنهن كنّ بالغات. كان الندب يساعد، لكن الابتهال إلى اللَّه كان أفضل، ولم يردن أن يضطررن عند مقابلة خالقهن أن

يشرحن له الحياة التي أهدرنها. كنّ يعلمن أنه سيطرح على كلّ منهن سؤالاً واحداً: «ما الذي فعلتِه؟»

تذكّرت «سي» أن أحد أبناء إيثل فوردهام قُتل في الشمال، في ديترويت. وأنّ لدى مايلين ستون عين واحدة بصيرة، فيما اخترقت الأخرى شظية خشب في المنشرة. لم يكن هناك أي طبيب ولم يتم استدعاء أحد. وانضمت حنة رايبرن وكلوفر ريد، وقد أقعدهما شلل الأطفال، إلى أشقائهما وزوجيهما في جرّ ألواح الخشب إلى كنيستهم التي تضررت جراء العاصفة. كنّ يؤمنّ أن بعض الشر غير قابل للإصلاح وأنّ من الأفضل ترك عملية محاربته للرب. آمنّ أيضاً بأن ثمة أنواعاً من الشر بالإمكان تخفيف حدّتها. لبّ المسألة في معرفة الفارق.

المرحلة الأخيرة من تعافي «سي» كانت الأسوأ، بالنسبة إليها. فقد توجّب أن تسفعها الشمس، ما يعني أن تمضي ساعة على الأقل في اليوم مباعدةً ما بين ساقيها معرّضةً نفسها للشمس الحارقة. واتفقت النساء كلهنّ على أن ذلك التعرّض للشمس سيخلصها من أي علّة متبقّية في الرحم. رفضت «سي» وقد صُدمت وأُحرجت. لنفترض أن شخصاً ما، ولداً أو رجلاً، رآها منفرجة الساقين على هذا النحو؟

قلن: «لن ينظر إليكِ أحد. وحتى لو فعلوا، ماذا في ذلك؟»

«أتعتقدين أن مهبلك خبر مهم؟»

«انزعي القلق من رأسك»، نصحتها إثيل فوردهام. «سأبقى

معك في الخارج. المهم هو الحصول على علاج دائم، ذاك الذي يتجاوز قدرة البشر».

وهكذا استلقت «سي»، مُحْرَجةً ومُستاءَة، على وسائد عند حافة شرفة إثيل الخلفية الصغيرة ما إن وجّهت الشمس أشعتها العنيفة في ذلك الاتجاه. كان الغضب والمذلّة يجعلانها كل مرّة تثني أصابع رجليها وتصلّب ساقيها.

«أرجوك، يا آنسة إثيل. لم يعد باستطاعتي القيام بهذا».

«أوه، اهدئي يا فتاة»، قالت إثيل فاقدة الصبر. «يمكنني القول إنك في كل مرة باعدت فيها بين ساقيك حتى الآن تعرّضت للخداع. أتعتقدين أن أشعة الشمس ستخونك هي الأخرى؟»

استرخت في المرة الرابعة، ذلك أن ساعة من التمدّد المتصلّب كانت متعبة للغاية. تجاهلت مسألة أن هناك من يسترق النظر من خلال سيقان الذرة القصيرة في حديقة إثيل، أو يختبئ وراء أشجار الجمّيز التي خلفها. ولن تعرف أبداً هل إن الأيام العشرة من الاستسلام للشمس قد ساعدت أعضاءها النسائية أم لا. وما أعقب الساعة الأخيرة من التعرض لضربات الشمس، عندما سُمح لها بالجلوس باحتشام على كرسي هزّاز، هو حبّ إثيل فوردهام المتطلّب الذي خفّف عنها الكثير ومدّها بالقوة.

سحبت المرأة كرسيّاً إلى مقربة من كرسي «سي» على الشرفة، ووضعت على الطاولة بينهما طبقاً من البسكويت الساخن سخونة الفرن ومرطباناً من مربى التوت البرّي. كان ذلك أول طعام غير طبّي

يُسمح لـ «سي» بتناوله وكان الأول بمذاق السكّر. أخذت إثيل تتحدث بهدوء وعيناها مركّزتان على حديقتها.

«عرفتك قبل أن تتمكني من المشي. كانت عيناك كبيرتين وجميلتين، لكنهما كانتا ممتلئتين بالحزن. رأيت كيف كنتِ تتبعين شقيقك عن قرب، وعندما غادر هربتِ مع ذلك الكائن الذي يهدر هواء اللّه وزمانه. وها قد عدت إلى الديار، وشفيت في النهاية، لكنك قد تهربين مرةً أخرى. لا تقولي لي إنك ستدعين لينور تقرر مرّةً أخرى من أنت؟ وإذا فكّرتِ في ذلك، دعيني أقل لك شيئاً أولاً. أتذكرين حكاية الإوزة والبيضات الذهبية تلك؟ كيف أن المزارع أخذ البيض وكيف جعله الطمع أحمق بما يكفي لقتل الإوزة؟ لطالما فكّرت أن الإوزة الميتة قد تصبح وجبة لذيذة واحدة على الأقل. لكن الذهب؟ اللعنة. وكان ذلك دوماً الأمر الوحيد في ذهن لينور. امتلكته، أحبته، وظنّت أنه يضعها في منزلة أرفع من الجميع. كالمزارع تماماً. لماذا لم يفلح أرضه، ويبذرها، ويزرع ما يأكله؟»

ضحكت «سي» ودهنت بسكويتة أخرى بالمربّى.

«أترين ما أعنيه؟ انظري إلى نفسك. إنك حرّة. لا شيء ولا أحد مضطرّ إلى إنقاذك سواكِ. ازرعي أرضك الخاصة. إنك شابة وامرأة وهناك قيود جدّية في الحالتين، لكنك إنسانة أيضاً. لا تدعي لينور أو صديقاً تافهاً وبالتأكيد ليس طبيباً شريراً أن يقرروا من أنت. تلك عبودية. يكمن في مكان ما في داخلك ذاك الإنسان الحرّ الذي أتحدّث عنه. اعثري عليه واجعليه يقم ببعض الخير في العالم».

وضعت «سي» إصبعها في مرطبان مربى التوت البري، ولعقته.

«لن أذهب إلى أي مكان، يا آنسة إثيل، فهذا هو المكان الذي أنتمي إليه».

وقفت «سي» بعد ذلك بأسابيع عند الموقد تحشر أوراق الملفوف اليانع في قدر من الماء المغلي وتنكّهها بقطعتين من لحم عرقوب الخنزير. ولما عاد فرانك من العمل وفتح الباب لاحظ من جديد كم تبدو بصحة جيدة: بشرة متوهّجة، ظهر مستقيم وليس محدودباً بشكل مزعج.

«هيه»، قال. «انظري إلى نفسك».

«سيئة؟»

«كلا، بل تبدين حسنة المظهر. أتشعرين أنك في حال أفضل؟»

«سأقول، أفضل بكثير، بكثير. هل أنت جائع؟ هذه وجبة طعام لا تُحتسب. أتريدني أن أمسك بدجاجة؟»

«لا. لا بأس بأي شيء تطبخينه».

«أعرف أنك تحب الخبز المقلي الذي كانت تصنعه الماما. سأصنع بعضاً منه».

«أتريدينني أن أقطع حبّات الطماطم هذه؟»

«نعم».

«ما كل تلك الأشياء على الأريكة؟» كانت قد مرّت أيام على وجود كومة قصاصات القماش عليها.

«قِطَع لصنع لحاف».

«وهل سبق لك في حياتك أن احتجت إلى لحاف في هذا المكان؟»

«لا».

«لِمَ تصنعين واحداً إذاً؟»

«الزوّار يشترونها».

«أي زوّار؟»

«أناس في جيفري، بماونت هيفن. تشتريها منّا الآنسة جونسون التي من دير «الراعي الصالح» وتبيعها للسياح في ماونت هيفن. وإذا تبيّن أن اللحاف الذي أصنعه جيّد، فإن الآنسة إيثل قد تريها إياه».

«لطيف».

«أكثر من لطيف. إننا ننوي الحصول على الكهرباء ومياه الشفة. وكلتاهما تكلّفان مالاً. المروحة الكهربائية وحدها يعادل ثمنها ثمن لحاف».

«يمكنك إذاً عندما أقبض أجري أن تبتاعي لنفسك براد فيلكو».

«وما حاجتنا إلى صندوق تبريد؟ فأنا أعرف كيفية حفظ الأطعمة، ويمكنني إن احتجت شيئاً آخر أن أخرج فأقطفه أو أجمعه أو أقتله. ثم من منا يتولى الطبخ هنا، أنا أم أنت؟»

ضحك فرانك. هذه الـ«سي» ليست تلك الفتاة التي كانت

ترتجف لدى أدنى لمسة من العالم الحقيقي والشرير، ولا تلك الفتاة التي لم تكن قد بلغت بعد الخامسة عشرة وهربت مع أول فتى طلب منها ذلك، ولم تكن أيضاً عاملة المنزل التي اعتقدت أن ما حصل لها وهي مخدّرة شيء جيد؛ جيّد لأن صاحب الرداء الأبيض قال ذلك. لم يعرف فرانك ما الذي جرى خلال تلك الأسابيع في منزل الآنسة إثيل، وهي محاطة بأولئك النسوة ذوات العيون التي لا يخفى عليها شيء واللواتي كانت خيبة أملهنّ في العالم جليّة دوماً. إخلاصهن ليسوع ولبعضهنّ بعضاً ثبّتهن وسما بهنّ فوق نصيبهن من الحياة. لقد سلّمنه «سي» التي لن يحتاج أبداً بعد الآن أن يضع يديه أو ذراعيه فوق عينيها لوقف الرجفة في عظامها.

«لن يتمكّن رحمك أبداً أن يحمل ثمراً».

ذلك ما أبلغتها إياه الآنسة إثيل فوردهام. مرّرت لها الخبر، من دون أسى أو خوف، كما لو أنها تتفحّص نبتة «بوربي»[1] تعرّضت لاجتياح الأرانب المغيرة. لم تعرف «سي» حينها شعورها حيال ذلك الخبر، كما لم تعرف شعورها حيال الدكتور «بو». الغضب لم يكن متيسّراً لها، فقد كانت غبية جداً وحريصة جداً على إرضاء الآخرين. كانت، كالعادة، تلوم قلّة تعليمها على كونها حمقاء، لكن هذا العذر تلاشى في اللحظة التي فكّرت فيها بالنساء الماهرات اللواتي اعتنين بها وشفينها. من بينهن من كن بحاجة إلى من يقرأ عليهن آيات الكتاب المقدّس لأنهن لم يكنّ قادرات على فك رموز

(١) شركة مختصة بتوزيع البذور والنبات وأدوات الحدائق.

الحروف المطبوعة بأنفسهن، لذا شحذن مهارات الإنسان الأمّي: ذاكرة مثالية، ذهن فوتوغرافي، حاستا شم وسمع متوقّدتان. وعرفن كيف يصلحن ما خرّبه طبيب متعلّم مجرم. إن لم يكن الأمر يتعلّق بالتعليم، فبِمَ إذاً؟

لقد صُنّفت باكراً بأنها غير محبوبة، و«ابنة البالوعة» التي بالكاد صبرت عليها لينور؛ الوحيدة التي اهتم أهلها لرأيها، وكما قالت الآنسة إثيل تماماً فإنها وافقت على التصنيف واعتقدت أنها عديمة الجدوى. ولم تقل لها أيدا: «أنت ابنتي. أنا شغوفة بك. لم تولدي في بالوعة، بل ولدت بين ذراعي. تعالي إليّ ودعيني أعانقك». كان على أحدهم، في مكان ما، قول تلك الكلمات وهو يعنيها، إن لم تقلها أمها.

وحده فرانك وفاها قدرها. صحيح أن تفانيه وقاها لكنه لم يحصّنها. هل كان عليه أن يفعل؟ لِمَ يجب أن يكون ذلك عمله لا عملها؟ لم تتعرّف «سي» إلى نساء ناعمات، سخيفات. ليس ثيلما أو سارة أو أيدا، وبالتأكيد ليس النساء اللواتي عملن على شفائها. وحتى السيدة (ك.)، التي سمحت للصبية باللعب ببذاءة معها، كانت تصفّف الشعر وتصفع كل من يتلاعب معها داخل مطبخ تصفيف الشعر أو خارجه.

الأمر يتعلّق بها وحدها إذاً. أرادت، في هذا العالم ومع أولئك الناس، أن تصبح الشخص الذي لن يحتاج أبداً بعد الآن إلى الإنقاذ. ليس من لينور من خلال أكاذيب ذلك الشخص القذر،

وليس من الدكتور «بو» من خلال شجاعة سارة وشقيقها. أرادت، بضربات الشمس أو من دونها، أن تصبح الإنسانة التي تنقذ نفسها بنفسها. ألديها عقل أم لا؟ فالتمني لن يحقق ذلك، ولا الملامة، بل التفكير. إن هي لم تحترم نفسها، فلمَ قد يفعل الآخرون؟

لا بأس. لن تُرزق أبداً بأولاد تعتني بهم وتحظى معهم بالأمومة.

لا بأس. ليس لديها شريك حياة وربما لن تحظى بواحد أبداً. وما أهمية ذلك؟ الحب؟ أرجو عفوكم. الحماية؟ آه، بالتأكيد. البيض الذهبي؟ لا تحملني على الضحك.

حسناً. إنها بلا مال. لكن ليس لوقت طويل. عليها أن تجد طريقة تكسب بها عيشها.

وماذا بعد؟

بعدما أبلغتها الآنسة إثيل بالخبر السيّئ، ذهبت المرأة الأكبر سنّاً إلى الفناء الخلفي وطمرت ثفل القهوة وقشر البيض في التراب حول نباتاتها. أخذت «سي» الخالية من التعبير والعاجزة عن الرد تراقبها. تدلّى من رباط مئزرها كيس صغير من فصوص الثوم التي قالت إنها تستخدمها لمكافحة المنّ. والآنسة إثيل بستانية شرسة تردع الأعداء أو تدمرهم وترعى النباتات. تلوّى دود البزّاق ومات تحت الماء الممزوج بالخل. صرخت حيوانات الراكون الجريئة والواثقة من نفسها وهربت عندما لمست أقدامها الطريّة الصحف المجعّدة أو قطع سياج الدجاج الموضوعة حول النباتات. نامت سيقان الذرة آمنةً من الظربان تحت أكياس الورق. تقوّست قرون

اللوبياء، تحت عنايتها، ثم استقامت للإعلان عن جهوزيتها. هامت محاليق الفراولة على وجهها وثمارها القرمزية ـ الملوكية تلمع تحت مطر الصباح. تجمّع النحل لأداء التحية للإليسيوم(*)، وشرب رحيقه. لم تكن حديقتها جنة عدن؛ بل كانت أكثر من ذلك بكثير. بالنسبة إليها، العالم المفترس بأسره يتهدّد حديقتها وينافسها على غذائها وجمالها وفوائدها ومطالبها. وقد أحبتها.

ما الذي أحبته «سي» يا تُرى في هذا العالم؟ عليها أن تفكّر في ذلك.

ها هو شقيقها هنا معها الآن، وهذا مريح جداً، لكنها لم تعد تحتاجه كما كانت من قبل. لقد أنقذ، بالمعنى الحرفي، حياتها، لكنها لا تفتقد أصابعه عند مؤخرة عنقها ولا تريدها، وهو يطلب منها ألا تبكي، ويخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام. ربما تحتاجه في بعض الأمور، لكن ليس في كل شيء.

«لن يكون لي أبناء أبداً»، أخبرته «سي» وخفّفت النار تحت قدر الملفوف.

«الطبيب؟»

«الطبيب».

«آسف، يا سي. آسف حقّاً»، وتحرّك فرانك في اتجاهها.

«لا تفعل»، قالت وهي تدفع يده بعيداً. «عندما أخبرتني

(*) Illicium: يدعى أيضاً «الأنيسون النجمي»، وهو نبات من فصيلة المغنوليات.

الآنسة إيثل لم أشعر بأي شيء في البداية، لكنني أفكر الآن في ذلك طوال الوقت. الأمر أشبه بوجود طفلة هنا في الأسفل تنتظر الخروج إلى الحياة. إنها في مكان قريب في الهواء، في هذا البيت، وقد اختارتني لتولد مني، وعليها الآن أن تعثر على والدة أخرى»، وأجهشت «سي» في البكاء.

«هيّا، يا فتاة. لا تبكِ»، همس فرانك.

«ولِمَ لا؟ يمكنني أن أشعر بالتعاسة إن أردتُ ذلك. ولست مضطراً إلى مواساتي وجعل شقائي يزول. يجب ألا يزول. فالأمر محزن كما ينبغي أن يكون تماماً، ولن أختبئ من الحقيقة لمجرّد أنها مؤلمة». توقّفت «سي» عن النشيج لكن الدموع واصلت الانهمار على وجنتيها.

جلس فرانك، شبك يديه وأسند رأسه إليهما.

«أتعرف ابتسامة الأطفال الخالية من الأسنان تلك؟» قالت. «إنني أراها باستمرار. رأيتها مرّة في قرن فلفل أخضر. وفي مرة أخرى التَوَتْ غيمة بطريقة بدت فيها أشبه..»، لم تنهِ «سي» القائمة، واكتفت بالذهاب إلى حيث الأريكة فجلست وشرعت في ترتيب قطع أجزاء اللحاف وإعادة ترتيبها، وهي تمسح خديّها بظاهر يدها من حين إلى آخر.

خطا فرانك خارجاً، وأخذ يذرع الفناء الأمامي جيئةً وذهاباً، شاعراً برعشة في صدره. من قد يفعل ذلك بفتاة شابة؟ وهو طبيب فوق ذلك؟ ولماذا، بحق الجحيم؟ حرقته عيناه وطَرَفهما سريعاً

لإحباط ما قد يصبح البكاء الذي لم يقم به منذ أن كان طفلاً صغيراً. بل إنه لم يبكِ حتى ومايك بين ذراعيه أو وهو يهمس لستاف وكانت عيناه تحترقان كحالهما الآن. صحيح أن بصره كان يغبش أحياناً، لكنه لم يبكِ. ولا مرة.

شعر بالارتباك وبالاضطراب العميقين، فقرر مداواة ذلك بالمشي. سار على الطريق واجتاز الممرات ودار حول الأفنية الخلفية. لوّح بيده من وقت إلى آخر للجيران العابرين أو للذين ينجزون الأعمال على شرفاتهم، ولم يصدّق كم كان يكره هذا المكان في ما مضى. وها إنه يبدو الآن جديداً وقديماً معاً، آمناً ومتطلّباً. ولما وجد نفسه عند ضفة «ريتشد»، الذي يكون جدولاً أحياناً وأحياناً أخرى ساقية، وأخرى قاعاً من الوحول، جلس القرفصاء تحت شجرة غار. شقيقته محبطة وعاقر لكنها ليست مهزومة. لقد تمكّنت من معرفة الحقيقة وتقبّلتها، واستمرت في خياطة اللحف. أخذ فرانك يحاول بلورة ما يكدّره وما سيفعل حياله.

- ١٤ -

عليّ أن أخبرك شيئاً على الفور. يجب أن أقول الحقيقة كاملة. لقد كذبت عليك وكذبت على نفسي. خبأت الأمر عنك لأنني خبأته عن نفسي. شعرت بفخر شديد وأنا أحزن على صديقيّ الميتين. وكم أحببتهما. وكم اهتممت بهما، وافتقدتهما. كانت لوعتي من الكثافة بحيث غطّت كلّياً على عاري.

ثم أخبرتني «سي» عن رؤيتها طفلة تبتسم في أنحاء المنزل كلها، في الهواء، في الغيوم. لقد صدمني الأمر. ربما تلك الفتاة الصغيرة لا تنتظر في الجوار لتولد منها. لعلها ميتة بالفعل، تنتظر مني أن أتقدّم وأخبر كيف.

أنا من أطلق النار على الفتاة الكورية في وجهها.

أنا من لمَسَتْه.

أنا من رآها تبتسم.

أنا من قالت له «يام ـ يام».

أنا من استثارته.

طفلة. فتاة صغيرة جداً.

لم أفكّر. لم أضطر إلى ذلك.

الأفضل أن تموت.

كيف يمكنني تركها تعيش بعدما نزلت بي إلى مكان لم أكن أعلم بوجوده في داخلي؟

كيف كان بإمكاني أن أحب نفسي، أو حتى أكون نفسي، إن استسلمتُ لذاك المكان الذي أنزلت فيه سحابتي وتركتها تتذوّقني في ذلك الوقت والمكان بالذات؟

وثانيةً في اليوم التالي والذي بعده ما دامت تأتي للتنقيب في المهملات.

أي نوع من الرجال ذاك؟

وأي نوع من الرجال يعتقد أنه يستطيع يوماً أن يدفع في حياته ثمن تلك البرتقالة؟

يمكنك الاستمرار في الكتابة، لكنني أعتقد أن عليك أن تعرف الحقيقة.

- ١٥ -

بدت «سي» في اليوم التالي على الفطور وكأنها عادت إلى ذاتها الجديدة المستقرة، الواثقة، المبتهجة والمنشغلة. سألت فرانك، وهي تسكب في صحنه البصل المقلي والبطاطا، إن كان يريد البيض أيضاً.

رفض، لكنه طلب مزيداً من القهوة. لقد أمضى ليلةً بلا نوم متقلّباً وعالقاً في شباك أفكارٍ لجوجةٍ نكدة. كيف غطّى على ذنبه وعاره بالحزن الكبير على صاحبيه الميتين، متشبثاً ليلاً ونهاراً بتلك المعاناة لأنها خلّصته من شباك ورطته وأبقت على الطفلة الكورية مخبأة. وها إن تلك الشباك تجثم عميقاً في صدره ولا يستطيع شيء أن يزيحها، وأفضل ما يمكن أن يأمله هو أن يعمل الوقت على فكّها. في غضون ذلك هناك أمور جديرة بالاهتمام تحتاج إلى القيام بها.

«سي؟» سُرّ فرانك وهو ينظر إلى وجهها ليرى عينيها جافتين وهادئتين. «ماذا حلّ بذلك المكان الذي اعتدنا التسلل إليه؟ أتذكرين؟ كانت هناك بعض الخيول».

«أذكر»، قالت «سي». «سمعت أن أناساً اشتروه لجعله مكاناً للعب الورق. المقامرة ليلاً ونهاراً. ولديهم نساء هناك أيضاً. وسمعت بعد ذلك أنهم يديرون قتالاً بين الكلاب».

«وماذا فعلوا بالخيول؟ هل ثمّة من يعلم؟»

«لست أدري. اسأل سالم. إنه لا يقول شيئاً، لكنه يعرف كل ما يدور من أمور».

لم تكن لدى فرانك نية دخول منزل لينور ليتكلم مع سالم. كان يعلم أين يعثر عليه ومتى، فالعجوز منتظم في عاداته كالغراب. يجثم في وقت محدد على شرفة أحد الأصدقاء، ويغادر إلى جيفري في يوم معيّن، ويتّكل على الجيران لإطعامه الوجبات الخفيفة بين الوجبات الرئيسية، ثم يستقرّ، شأنه دائماً، بعد العشاء مع الجماعة على شرفة فيش آي أندرسون.

جميع الرجال هناك من المحاربين القدامى باستثناء سالم. قاتل الاثنان الأكبر سنّاً في الحرب العالمية الأولى، فيما حارب الآخرون في الثانية. كانوا يعرفون قضية كوريا لكنهم كانوا يجهلون ما الذي يجعلها لا تنال الاحترام الذي يعتقد فرانك أنها تستحقه. كان المحاربون القدامى يصنّفون المعارك بحسب عدد الخسائر: ثلاثة آلاف في هذا المكان، ستون ألفاً في الخنادق، اثنا عشر ألفاً في مكان آخر. كلّما زاد عدد القتلى اعتُبر المحاربون أكثر شجاعة ولم يُعتبر القادة أكثر غباء. وبالرغم من أن سالم ماني كان يفتقر إلى قصص الحرب أو وجهات النظر، إلا أنه كان متعطّشاً إلى اللعب. والآن، وقد أُجبرت زوجته على قضاء معظم وقتها في السرير أو على كرسي مريح، أصبح أكثر قرباً إلى الحرّية مما كان عليه. يُفترض به بالتأكيد أن يستمع إلى شكاويها، لكن الصعوبة التي كانت تعانيها

في النطق كانت تساعده على الادّعاء بأنه لا يفهم ما تتحدث عنه. وتمثّلت الفائدة الأخرى في أنه هو من بات يتولى شأن المال. إنه يذهب كل شهر مع من يوصله إلى جيفري ويسحب ما يحتاج إليه من حسابهما المصرفي. وإذا طلبت لينور رؤية دفتر الحساب يتجاهلها أو يقول: «لا تقلقي على الإطلاق، فكل قرش بخير».

يتجمّع سالم وأصدقاؤه، كل ليلة تقريباً بعد العشاء، للعب الداما والشطرنج، إضافةً إلى «الويست»[1]. وتشكّل طاولتان جزءاً دائماً من تجهيزات شرفة فيش آي الفوضوية، فيُسند قصب صيد السمك على السياج، وتنتظر سلال الخضر من يأخذها إلى المنزل، وهناك علب المشروبات الغازية الفارغة والصحف. كل الحاجات التي توفّر الراحة للرجال. وفيما يقوم زوجٌ من اللاعبين بتحريك القطع، يستند الآخرون إلى السياج للضحك وإعطاء النصح ومضايقة الخاسرين. خطا فرانك من فوق سلة شمندر ديترويت الأحمر الداكن وانضم إلى مجموعة المتفرجين. وما إن انتهت لعبة «الويست» حتى انتقلوا إلى رقعة الشطرنج حيث يستغرق سالم وفيش آي دقائق طويلة من التفكير بين النقلة والأخرى. وقد تكلّم خلال واحدة من هذه الوقفات، فقال:

«قالت لي سي إن ذلك المكان هناك ـ حيث الخيول ـ ذلك الذي كان مزرعةً للفحول، قالت إن قتالاً بين الكلاب يدور فيه الآن. أهذا صحيح؟»

«قتال كلاب»، وغطى سالم فمه لكبح ضحكته.

(١) Whist: لعبة ورق شبيهة بالبريدج.

«لِمَ تضحك؟»

«قتال كلاب. صلّ ليكون هذا كل ما يفعلونه. لا. لقد احترق المكان منذ فترة، بفضل الربّ الطيب»، ولوّح بيده حاثّاً فرانك على عدم تضييع تركيزه على نقلته التالية.

«تريد أن تعرف عن قتال الكلاب؟» سأله فيش آي، وبدا مرتاحاً للمقاطعة. «الأمر يتعلّق بقتال رجال يُعاملون معاملة الكلاب».

وقال رجل آخر: «ألم ترَ ذلك الفتى يمرّ من هنا باكياً؟ بمَ دعا نفسه؟ هل تتذكّر اسمه يا أندرو؟»

«جيروم»، قال أندرو. «على اسم أخي. وهذا ما يجعلني أتذكّره».

«هذا هو. جيروم»، وضرب فيش آي ركبته بيده. «أخبرَنا أنهم جلبوه ووالده من ألاباما، وهما مقيدان بالحبال، وأنهم أجبروهما على مقاتلة أحدهما الآخر، بالخناجر».

«لا، لا يا سيدي. بالسكاكين. نعم، بالسكاكين»، بصق سالم من فوق السياج. «قال إنهما أُجبرا على مقاتلة أحدهما الآخر حتى الموت».

«ماذا؟» وشعر فرانك بغصّة في حلقه.

«ذلك صحيح. على أحدهما أن يموت، أو يُقتَلا معاً. ويتراهنون على من سيموت»، قطّب سالم جبينه وتململ في كرسيه.

«قال الفتى إن أحدهما شطّب الآخر بشكل طفيف، ما يكفي

لإسالة خط خفيف من الدم. لكن المباراة كانت معدّة بحيث يتمكّن فقط من يبقى حيّاً من المغادرة. لذا توجب على أحدهما أن يقتل الآخر»، وهزّ أندرو برأسه.

تحوّل الرجال إلى جوقة، يضيفون ما يعرفونه أو يشعرون به إلى شهادات الآخرين مقاطعين بعضهم بعضاً.

«لقد تدرّجوا من قتال الكلاب، وحوّلوا الرجال إلى كلاب».

«أيمكنك تصوّر ما هو أفظع من ذلك؟ وضع الأب في مواجهة الابن؟»

«قيل إنه قال لأبيه: لا، يا أبي، لا».

«فردّ والده: عليك ذلك».

«إنه قرار شيطاني. فمهما يكن قراره سيشكّل رحلة مؤكدة إلى جحيمه».

«ثم إنه عندما استمر في الرفض، قال له والده: اطعنّي، يا بني، هذه المرة الأخيرة فقط. قم بذلك. ويقال أنه قال لوالده: لا أستطيع انتزاع حياتك. فأجابه والده: ليست هذه بحياة. وفي هذا الوقت أخذ الحشد، المتمتع بالسكر وقد اشتعل كلّه حماسة، وجنّ جنونه أكثر فأكثر، يصرخ: كفّا عن النباح. قاتلا! اللعنة! قاتلا!»

أخذ فرانك يتنفّس بصعوبة. «ثم ماذا؟»

«وماذا تعتقد؟ لقد فعلها»، واستبدّ الغضب بفيش آي من جديد. «جاءنا باكياً وأخبرنا بالأمر كلّه. بكل شيء. المسكين. جمعت روز

إلن وإثيل فوردهام بعض القروش له ليتمكن من استئناف حياته في مكانٍ ما. وكذلك فعلت مايلين. وجمعنا كلّنا بعض الثياب له، فقد كان غارقاً بالدماء».

«لو رآه قائد الشرطة والدم ينقّط منه لبقي في السجن حتى يومنا هذا».

«أخرجناه على ظهر بغل».

«جلّ ما كسبه كان حياته التي أشكّ في أنها تساوي له شيئاً بعد ذلك».

قال سالم: «لا أعتقد أنهم كانوا سيوقفون هذه الفوضى لولا بيرل هاربور».

«متى حدث ذلك؟» وضغط فرانك فكّه بقوة.

«متى حدث ماذا؟»

«عندما جاء الابن، جيروم، إلى هنا؟»

«منذ زمنٍ طويل، عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً على ما أظن».

استدار فرانك ليغادر عندما طرأ له سؤال آخر. «بالمناسبة، ماذا حلّ بالخيول؟»

«أعتقد أنهم باعوها»، قال سالم.

هزّ فيش آي برأسه. «أجل، لأحد المسالخ».

«ماذا؟» وفكّر فرانك أنه يصعب تصديق ذلك.

«الحصان هو اللحم الوحيد الذي لم يُقنّن خلال الحرب، كما تعلم»، قال فيش آي. «تناولت البعض منه في إيطاليا، وفي فرنسا أيضاً. طعمه يشبه تماماً طعم العجل ولكنه أكثر حلاوة».

ضحك أندرو: «وتناولتَ بعضاً منه أيضاً في هذه الولايات المتحدة الطيبة بالذات، لكنك لم تكن تعلم».

بدّل سالم الموضوع وهو متشوّق للعودة إلى رقعة الشطرنج. «قل لي، كيف حال شقيقتك؟»

«تحسّنت»، أجاب فرانك. «ستكون بخير».

«هل أخبرتك ماذا حلّ بسيارتي الفورد؟»

«هذا آخر ما قد يخطر ببالها، يا جدي. ويجب أن يكون آخر ما يخطر ببالك أيضاً».

«نعم، حسناً». وحرّك سالم ملكته.

- ١٦ -

رفضت «سي» التخلّي عن اللحاف. أراده فرانك لغرض ما، لأمر يزعجه. كان اللحاف هو الأول الذي تصنعه بنفسها. ما إن أصبح في وسعها الجلوس من دون ألم أو نزف حتى احتلت نساء الحي غرفة المريضة وشرعن في تصنيف الأجزاء وهن يتناقشن في أدويتها وفي أفضل الصلوات التي سيأخذها يسوع في الاعتبار. وكنّ ينشدن أيضاً، وهن يخطن معاً قطع لوحة الألوان التي اتفقن عليها. كانت تعلم أن لحافها ليس على هذا القدر من الجودة، لكن فرانك قال إنه ممتاز. ممتاز لأجل ماذا؟ رفض القول.

«هيّا، يا سي. أحتاجه. وعليك أن تأتي معي. علينا كلانا أن نكون هناك».

«أين؟»

«ثقي بي».

تأخر على موعد العشاء وولج الباب وهو يتعرّق ومقطوع النفس كما لو أنه كان يركض، وكانت تبرز من جيبه الخلفي قطعة من الخشب المصقول بحجم المسطرة، وكان يحمل مجرفة.

قالت له «سي» لا. قطعاً لا. وهي، بالرغم من عدم الاتقان الذي تميّز به اللحاف، ثمّنت نمطه غير المثير للإعجاب ولوحة ألوانه الاعتباطية. أصرّ فرانك. أدركت «سي»، من خلال تعرّقه والتصميم الحديدي في عينيه، أنه ينوي القيام بأمر مهم جدّاً له. انتعلت صندلها على مضض وتبعته، وهي خجلة مجدّداً من سوء نوعية اللحاف الذي حمله فوق كتفه. ربما اعتقد من يراهما أنهما خارجان لصيد السمك. أفي الساعة الخامسة؟ ومعهما مجرفة؟ يصعب ذلك.

سارا صوب طرف المدينة، ثم استدارا على طريق عربات الخيل ـ الطريق نفسها التي سلكاها عندما كانا طفلين. وعندما استمرت «سي» في التعثّر بالحجارة وصندلها الرقيق يعوّقها خفّف فرانك من سرعته وأخذ يدها بيده. لم تكن هناك فائدة في مساءلته. رافقت «سي» شقيقها الكبير بصمت تماماً كما في الماضي البعيد عندما كانا يغامران يداً بيد في دخول مناطق مجهولة. وبالرغم من انزعاجها لمعاودتها القيام بما يريده الآخرون، إلا أنها كانت متعاونة. هذه المرة فقط، قالت في نفسها. لا أريد أن يتخذ فرانك القرارات عنّي.

المَدارك تتغيّر: تتقلّص الحقول مع تقدم العمر؛ ويصبح الانتظار نصف ساعة طويلاً طول يوم ولد. استغرق اجتياز الأميال الصخرية الخمسة التي عبراها ساعتين تماماً كما استغرق اجتيازها وهما ولدان، وبدت مع ذلك أنها تمتد إلى الأبد وبعيدة، بعيدة جدّاً عن المنزل. والسياج الذي كان متيناً كان منهاراً في معظم الأماكن. كما أن لافتات التحذير الإضافية، وبعضها يحمل الشكل الأولي للجمجمة، اختفت أو باتت مجرّد ظلّ للتحذيرات تبرز من خلال

العشب المرتفع. وما إن تعرّفت «سي» المكان حتى قالت: «لقد احترق كلّه. لم أكن أعلم ذلك، هل كنت تعلم؟»

«أخبرني سالم، لكننا لن نذهب إلى هناك». غطى فرانك عينيه لبرهة قبل أن يتحرّك متقفياً ما تبقى من السياج. توقف فجأةً وتفحّص التراب وهو يطأ العشب ويكبسه في بعض الأمكنة إلى أن وجد ما يبحث عنه.

«أجل»، قال. «هنا تماماً». وأعطاها اللحاف وأخذ المجرفة من يدها وشرع في الحفر.

يا للعظام الصغيرة. وهناك بضعة أجزاء من الثياب. لكن الجمجمة نظيفة وباسمة.

عضّت «سي» على شفتها وأجبرت نفسها على عدم الإشاحة بنظرها بعيداً، وعلى ألا تكون الطفلة المرعوبة التي لا تطيق النظر مباشرةً إلى المذبحة الدائرة في العالم، مهما كانت شريرة. لم تنكمش هذه المرّة خوفاً أو تغمض عينيها.

وضع فرانك بعناية، وبعناية شديدة، العظام على لحاف «سي» وقام بأفضل ما يعرف ويستطيع لترتيبها بالشكل الذي اتخذته سابقاً في الحياة. تحوّل اللحاف إلى كفن بلون ليلكي وقرمزي وأصفر وأزرق بحري داكن. لفّا سويةً القماش وعقدا طرفيه. أعطى فرانك «سي» المجرفة وحمل الرجل بين ذراعيه، وعاودا السير سالكين طريق العربات، ثم استدارا مبتعدين عن طرف لوتس صوب الجدول، وسرعان ما وجدا شجرة الغار ـ المقسومة من وسطها، وقد قُطع

رأسها، ولم تمت، باسطةً ذراعيها، إحداهما إلى اليمين والأخرى إلى اليسار. هناك عند قاعدتها وضع فرانك اللحاف المملوء بالعظام والذي تحوّل الآن من كفن إلى نعش. ناولته «سي» المجرفة، وأخذت تراقب الجدول المتموّج والخضرة على الضفة المقابلة، بينما كان هو يحفر.

«من ذاك؟» وأشارت «سي» بإصبعها إلى الجانب الآخر من الماء.

«أين؟» واستدار فرانك لينظر. «لا أرى أحداً».

«أعتقد أنه رحل الآن». لكنها لم تكن متأكدة. بدا لها رجلاً قصير القامة يرتدي بذلة غريبة ويؤرجح سلسلة ساعة، ويبتسم ابتسامة عريضة.

نبش فرانك حفرة بعمق أربع أقدام أو خمس وبعرض نحو ستة وثلاثين إنشاً. تطلّب الأمر بعض المناورة لأن جذور الغار قاومت الإزعاج وقاتلت دفاعاً عن نفسها. احمرّت الشمس وأوشكت على الغياب. كان البعوض يرتعش فوق صفحة الماء والنحل يعود إلى بيته واليراع ينتظر حلول الظلام. كانت الرائحة الخفيفة لعنب الكرم الدائري الأوراق، الذي ينقره العصفور الطنّان، تهدّىء من روع حفّار القبور. وما إن انتهى منه حتى هبّ أخيراً النسيم المرحّب به. دحرج الشقيق والشقيقة النعش الملوّن كأنما بالقلم إلى القبر العمودي، وما إن أهال عليه فرانك التراب حتى أخذ مسمارين وقطعة الخشب المصقولة ودقّها في جذع الشجر مستخدماً حجراً. التوى المسمار

الأول ولم يعد صالحاً، لكن الثاني صمد بما يكفي للكشف عن الكلمات التي نقشها على الشاهدة الخشبية.

هنا يقف رجل منتصباً.

ربما أراد أن يعتقد ذلك، لكن كان بإمكانه أن يقسم على أن شجرة الغار وافقت على ذلك بسرور. فقد تراقصت أوراقها الخضر الزيتونية بجنون، تحت وهج الشمس الكبيرة، الحمراء بلون الكرز.

- ١٧ -

وقفتُ في المكان طويلاً أحدّق إلى تلك الشجرة.

بدت قويةً جدّاً

وعلى قدرٍ كبيرٍ من الجمال.

مصابة في وسطها تماماً

ولكن حيّة وبخير.

لمست «سي» كتفي

بلطف.

فرانك؟

نعم.

هيا، يا شقيقي. لنعدْ إلى الديار.